آل عمران

آل عمران عائلة عظيمة:

آل عمران عائلة الأنبياء، عائلة عظيمة، تتكون من جد اسمه: عمران، زوجته امرأة صالحة، لا نعرف اسمها رغم أنها سببُ خيرِ العائلة وصلاحِها، أخرج الله من ذريتها بنتين، الأولى تزوجت سيدنا زكريا ﷺ، أما الثانية والتي وُلِدَتْ بعد فترة كبيرة هي السيدة مريم عليها السلام.

الأخت الكبرى أنجبت سيدنا يحيى ﷺ، والأخت الصغرى أنجبت سيدنا عيسى ﷺ. حقاً إنها عائلة عظيمة، عائلة الصلاح والتقوى، عائلة الأنبياء.

خُلّد ذكراها في القرآن إلى يوم الدين، ولم لا؟ وهي عائلة مؤمنة، هذه هي مقاييس العائلات، صلاح، تقوى، إيمان، نقاء، طهارة.

تُرى ما هي مقاييسنا اليوم في المفاضلة بين عائلة وأخرى؟

هل هي مقاييس الحسب والنسب أم مقاييس الجاه والسلطان؟

فهذا يتفاخر بعائلته، فهو ابن المحامي المشهور فلان، وعمه الطبيب المعروف فلان، وخاله التاجر الثري فلان. آل عمران عائلة العائلات، هكذا تكون النظرة الصحيحة، فاحرص أن تكون عائلتك على هذا المستوى.

صحّح هدفك!

سورة في القرآن باسم عائلة، أي شرف وأي فضل نالته هذه العائلة المؤمنة؟ ألا تحب أيها الشاب أن تقتدي بهذه العائلة وأن تجعلها دائماً وأبداً أمام عينيك؟ فبإقدامك على مشروع الزواج تكون بذلك قد وضعت اللّبنة الأولى في صرحٍ كبير اسمه «العائلة» فما أنت وزوجك إلا نواة لعائلة كبيرة.

فإذا كان هدفك هو الوصول إلى عائلة مؤمنة نقية تقية تخرج ذرية صالحة، مثلها الأعلى آل عمران. إذا كان ذلك هو هدفك فاختر زوجك على هذا الأساس. ولا تجعل الشعر والعينين هما الأساس!

obeikandl.com

ابحث أولاً عن الموصولة بربها المُحبّة لدينها، هكذا تكون على طريق آل عمران. وهذا لا يمنع أن تختار الجميلة التي تسرك إذا نظرت إليها، ولكن الأساس والمقياس هو الدين.

كذلك البنت التي تهدف إلى بناء عائلة كآل عمران عليها باختيار المؤمن ذي الخلق والدين، وإياك أن تتمحور مواصفاتك لزوج المستقبل حول الشكل والمال والحسب والنسب فقط!

فلا بأس من هذه الأشياء طالما توافرت صفات الدين والخلق وهما الأساس.

أيها الأب أيتها الأم:

إن العائلة أمانة في أعناقكما، فالله الله في هذه الأمانة. بأيديكما تكرار تجربة آل عمران، تلك العائلة المؤمنة التي أنجبت الصالحين! يا لفرحتكما بأبنائكم وأحفادكم حين ترونهم تسعد الدنيا بأخلاقهم وإيمانهم، لقد خرّجتم إلى الدنيا نماذج ناجحة في كل شيء: إيمان، أخلاق، سلوك، علم، عمل.

يا له من حلم تحقيقه على أيديكم!

أيها الآباء لا خوف بعد اليوم:

عائلة عمران من آخر عائلات بني إسرائيل، وكذلك فأنبياؤها من آخر أنبياء بني إسرائيل. فآخر نبي منهم هو سيدنا عيسى عليه السلام، أما سيدنا يحيى فهو أكبر من سيدنا عيسى عليه السلام بحوالي ثلاث سنوات تقريباً، إنها عائلة صالحة من ذرية داود وسليمان! نعم فعمران وزكريا جدّهما هو سيدنا داود عليه السلام.

سبحان الله، إن سلالة الأنبياء كلها موصولة ببعضها، تُرى أهذه صدفة؟ فرسول الله محمد ﷺ جده سيدنا إسماعيل عليه السلام وسيدنا يوسف جده سيدنا إبراهيم عليه السلام.

حاشا لله! ليست صدفة بالطبع، فالله سبحانه وتعالى يعلمنا شيئاً عظيماً لا بد أن نفهمه جيداً ألا وهو:

رجل متدين يفهم دينه فهماً صحيحاً ويحب الله من كل قلبه فما يكون الجزاء إلا أن يرضى الله عنه ويُخرج من ذريته الصالحين، إنها رسالة إلى كل إنسان.

كن صالحاً تخرج ذرية صالحة وبحسب إيمانك ومنزلتك عند الله يُخرج من ذريتك

الأتقياء العابدين. ربما كان لك رأي مخالف؟ نعم أنا معك، فلكل قاعدةٍ استثناء، ولكن الأصل هو الصلاح. لذلك إذا رأيت شاباً متديناً أو شابة متدينة تأكّد أن في العائلة رجلاً صالحاً موصولاً بالله أو امرأة صالحة موصولة بالله، ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 34]، بشرى لكل أب وأم! لا تخافا على أولادكما رغم ما تريانه منهم في فترة المراهقة، فأنتما الضمان لهما طالما أنكما مؤمنان موصولان بالله.

ليس معنى ذلك ألاّ تربيا وتبذلا الجهد المطلوب في التربية والتقويم، فالتربية مرحلة لا نهائية، خذا بالأسباب وحينها ومهما حدث من ابنكما فسيرجع إلى رشده وصوابه، لقد رأيت ذلك بعيني، واقرأوا قول الله تعالى في سورة «الكهف» عن سبب حفظ الله لليتيمين: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: 82].

نبيان وعائلتان:

هيا لنستعرض قصة آل عمران من القرآن الكريم:

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33]، لقد اصطفى الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأربعة على العالمين: آدم، نوح، آل إبراهيم، آل عمران.

تأمّل معي في هذه الأسماء، ستجد أن هذين النبيين وهاتين العائلتين، هؤلاء الأربعة هم محور البشرية جميعها، فآدم أبو البشرية، ولما غرقت الأرض بعد الطوفان بدأت من جديد مع سيدنا نوح، وكأنه أبو البشرية الثاني، أما بالنسبة للعائلتين فسيدنا إبراهيم هو أبو الأنبياء، جاء من ذريته أنبياء كثر، وجاء من ذرية ابنه إسحاق كل أنبياء بني إسرائيل: يعقوب، يوسف، الأسباط، داود، سليمان، شعيب، يونس.

وجاء من ذرية ابنه إسماعيل النبيّ ﷺ، أما العائلة الثانية «آل عمران» فكان منها زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام. اصطفاءً من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء على العالمين.

أي فخر أنتِ فيه يا أمة محمد! فنحن نؤمن بهؤلاء الرسل مصداقاً لقول الله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: 285]، لك الحق يا أمة محمد أن تفتخري بأنك ورثة الأنبياء!

بل لله:

أول آية بدأنا بها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، ولذلك قلنا: إنك واقعٌ تحت نوعٍ من

الاصطفاء، انظر إلى تعداد أهل الأرض الذي يُقدر بستة مليارات ونصف، جعلك الله من المليار وربع المسلمين، ومن المليار وربع المسلمين نجد أن نصفهم أو ربعهم لا يصلون، وقد جعلك الله من الثلاثة أرباع الذين يصلون، وهذا اصطفاء آخر، وبعد ذلك اصطفاك الله مرة أخرى من الثلاثة أرباع الذين يصلّون فجعلك من الربع الذين يصلون في المساجد، وجعلك تحضر الصلاة وجلسات العلم في المسجد، انظر إلى مدى حب الله لك!

أيها القارىء الحبيب، إياك أن تظن أن ذهابك إلى المسجد خارج عن قدر الله تبارك وتعالى، وإياك أن تظن أن ذهابك إلى المسجد ليس رحمةً من الله ﷻ، لست أنت السبب في ذهابك إلى المسجد، وإنما الله هو السبب.

أقول لك شيئاً آخر، أتتذكر الأسبوع الماضي، أتذكر الذنب الذي فعلته؟ لو أن والديك هما اللذان يقرران خروجك من البيت وذهابك للمسجد، أكانا سيمنعانك من الخروج أم لا؟ سيقولون: أنت لا تستحق، أليس كذلك؟ وأنت كم أخطأت في حق الله سبحانه، الأسبوع الذي مضى كم مرة لم تصلِّ الفجر؟ وعملت كذا وكذا، وعصيت كذا، وفي النهاية أكرمك وأحسن إليك، أرأيت كم يحبك؟ ثم اجتباك أكثر وأقعدك في درس علم موجود فيه آلاف من البشر ويمكن أن يكون آلاف من الملائكة.

حديثنا عن كيفية المحافظة على الاصطفاء، نحن نسمع عن شباب يذهب إلى المسجد ويتحول بعد أسبوعين إلى إنسان آخر لم يعد يهمل في حياته أو يضيع وقته أو يتصف بالسلبية.

انتبه أن هذه السورة نزلت بعد غزوة أحد، وهي الغزوة التي نزل فيها الصحابة من على الجبل، وعصوا أمر النبيّ ﷺ فالله يقول لهم: أنتم أخطأتم، لكن أنا سأصطفيكم مرة أخرى حتى لا تقعوا في هذا الخطأ مرة ثانية، وستدركون من خلال سورة كاملة اسمها سورة «آل عمران» صفات الناس الذين اصطفاهم الله تبارك وتعالى.

سبب آخر:

انتبه، هناك سبب آخر لتسمية السورة بـ«آل عمران»، وإن كان الاصطفاء السبب الأصلي، لكن هناك سبب ثانٍ وهو أن السورة نزلت أثناء احتكاك المسلمين باليهود والنصارى، احتكاك قوي جداً، فهي نزلت عندما أتى وفد نصارى نجران ـ وهم من منطقة نجران باليمن ـ إلى المدينة ليناظروا النبيّ ﷺ عن سيدنا عيسى عليه السلام، أنا أريد أن أعرّفك

رحمة الإسلام، فهؤلاء القوم بلدهم اليمن بمعنى: أنهم ليس لهم سكن في المدينة، فتخيلوا أين يسكنهم النبيّ ﷺ؟

انظر إلى رحمة النبيّ ﷺ، أسكنهم في المسجد حيث قام فبنى لهم بناء فيه ليقعدوا فيه طوال فترة وجودهم، انظروا إلى سماحة الإسلام وصل إلى أي حد؟ أراد الله تبارك وتعالى وأراد النبيّ ﷺ أن تلين قلوبهم وأن يحببهم في الإسلام.

نحن أصلاً أصحاب دعوة نريد لكل الناس الهداية، فقدّر الله تعالى في فترة وجودهم إنزال سورة باسم عائلة من أكبر عائلات اليهود والنصارى، كأنه يقول لهم: تعالوا لأروي لكم عن عائلة من عائلاتكم، ومقدار ارتباطها بالله ومدى طاعتها لله.

الحكاية من البداية:

تعالوا نتعرف على هذه العائلة، التي كانت تعيش في فلسطين عند المسجد الأقصى، سنعود لقضية القدس، ونحكي أن بني إسرائيل كانوا يعيشون في فلسطين مع الرومان، وهذه الأحداث في زمن عائلة عمران، الرومان مسيطرون على فلسطين وهم كارهون لتوحيد الله تبارك وتعالى، لذا فهم يبطشون ببني إسرائيل أشدّ البطش، وكما قلنا في قصة سيدنا «موسى» أنه كلما زاد الإيمان تتحرر فلسطين، وكلما قلّ الإيمان تسقط فلسطين في أيدي قوم جبارين.

وفي ذلك الوقت، في زمن آل عمران قلَّ الإيمان كثيراً في الأرض حتى أنه لم يعد هناك وجود للمؤمنين في فلسطين إلا لهذه العائلة، عائلة عمران، فكانت العائلة الوحيدة أو من العائلات القليلة المؤمنة، أما البقية من بني إسرائيل واليهود فقد كانوا معرضون عن الله ﷻ، والرومان مسيطرون على فلسطين، وسبحان الله سنجد أنّ من سيقف ويعيد فلسطين هو إخلاص زوجة عمران وهي سيدة مخلصة، فبإخلاص سيدة سيطلع من بطنها من سيحرر المسجد الأقصى.

فزوجة عمران كان لديها بنت كبرى تزوّجها سيدنا زكريا وهو كبير في السن كما وصف نفسه: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4]، يعني: عجوز جداً، ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾، العظم أصبح رقيقاً جداً، فهو رجل كبير وعجوز، وتحرير فلسطين يحتاج إلى شباب فبدأت قضية هذه العائلة وهي إنجاب من سيحرر فلسطين.

إلى الشباب:

ظل عمران وزوجته يتضرعان لله: يا رب، ليس لنا ولد، أنجبنا بنتاً واحدة، ولم نعد

قادرين على الإنجاب، وبنتنا الوحيدة زوجها كبير وغير قادرين على الإنجاب أيضاً.

أتتخيّلون معي خريطة آل عمران؟ فعمران وزوجته أناس أتقياء جداً لكنهم كبروا، إلا أنهما يريدان أن يقوما بعمل أي شيء لفلسطين وللمسجد الأقصى، لكنهما غير قادرين لسنهما الكبير.

يا شباب، بعد ثلاثين سنة من اليوم سنكبر ونهرم ونكون في وضع آل عمران، ونقول: يا ليتني فعلت شيئاً لفلسطين وأنا في شبابي، هناك أناس كبيرة في السن لعلها تتألم وتقول: يا ليتني فعلت شيئاً لفلسطين وللإسلام.

هو يصلي وربنا يتقبل منه لكن من الذي يعمل للإسلام؟ الشباب الصغير.

من سيعين صاحبه ويقول له: تعال معي نحفظ القرآن؟ من الذي عنده طموح أن يفتح شركة كبيرة يوظف فيها أناساً كثيرين يعملون للإسلام؟ من الذي عنده طموح أن يخترع ما يجعل المسلمين في المقدمة؟ من الذي عنده طموح أن يصبح رياضياً ناجحاً؟

يا شباب، ما زال أمامكم الوقت، ما زالت لديكم الفرصة فاغتنموها.

وهذه كانت مشكلة العائلة، تريد شباباً رجالاً لا يخشون الرومان وينتصرون عليهم، فبدأت السيدة تدعو الله، ويبدو أن عمران ذلك الرجل العظيم الصالح مؤمن، لكن يبدو أن المرأة كانت همتها أعلى، بدليل ما ذُكر في القرآن أنها بدأت تدعو: «يا رب، ارزقني ولداً، ارزقني ولداً يا رب، ابنتي كبيرة في السن وحتى زوجها عجوز»، فما بالكم كم كان عمر امرأة عمران؟ يعني: إذا كان زوج ابنتها بلغ من الكبر عتيًا، ومع ذلك حلمها أن يتحرر المسجد الأقصى، انظر عندما يصبح الحلم كبيراً ونيتك تكون لله، والإخلاص يكون عالياً يصطفيك ربك ويحقق لك مرادك.

إخلاصك يغير الدنيا:

بدأت المرأة تدعو: يا رب ارزقني ولداً، يا رب ارزقني ولداً، وبدأت المفاجأة! بدأت تحسّ بجنين في أحشائها، ما هذا؟ أنا حامل؟ وهذه أعراض الحمل؟ فقالت كما تبيّن الآية التي بعدها: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: 35]، الذي في بطني ليس فيه شيء، فهي أصلاً كانت تريده لله، فقالت: يا رب، نذرت لك الذي في بطني محرراً فتقبّلْ مني إنك أنت السميع العليم. أظنّ أن الإخلاص واضح جداً، تحس بإخلاصها أليس كذلك؟

تعلمون يا شباب لو أن إنساناً مخلص جداً وصادقٌ في إخلاصه لا بد أن الله سيغير لأجله الأمر.

والله.. سأقول كلمة، ربما تقولون إنني مبالغ فيها: سيتغير مجرى التاريخ من أجل إنسان مخلص، والله سيغير الدنيا من أجل إخلاصك! أخلصْ أنت ولتكن نيتك نابعة من القلب.

انظر لزوجة عمران وإلى ما قالت، إنها تقول: يا رب، لقد نذرت لك، فهذا نذر لله، نحن عادة ننذر لأمور خاصة بالدنيا، فنحن ننذر عندما نشتري سيارة أو عندما يشفى ابني مثلاً فنقول: والله العظيم لأصومن ثلاثين يوماً، أو نقول: نذرٌ عليّ سأعمل كذا وكذا، إذن النذور عندنا نذورٌ دنيوية، لكن في هذه الآية يعلّمنا الله أن هناك من ينذر لله. يا رب، لك ما في بطني يعيش في المسجد الأقصى بمجرد فطامه إلى أن يحرره.

نعم، يبدأ تحرير المسجد الأقصى بأناسٍ مؤمنين.

من يملك الحرية: الشرق أم الغرب؟

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ﴾ [آل عمران: 35]، انظر لكلمة: ﴿لَكَ﴾، الذي في بطني، لك يا رب: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾.

ما معنى محرراً؟ محرراً أي: خالصاً لك يا رب، ليس لي فيه مطمع ولا شهوة ولا أي شيء، أريده أن يموت محرراً لك أنت وحدك فقط.

انظروا يا شباب لكلمة «محرراً» هل تستطيع أن تكون أنت محرراً لله ﷻ؟ هل تستطيع أن تحرر نفسك؟ محرَّر عكسها عبد، يا إخوة، كل واحد شهوته مسيطرة عليه أصبح عبداً لها، لا أقصد عبودية السجود والركوع، أيها الشاب هل تريد أن تكون حراً؟ انظر: كلمة الحرية عكسها العبودية.

انظر للغرب، الغرب الآن يقول: «الحرية»، ويقولون: مساكين يا أهل الشرق أنتم لستم أحراراً وليست لديكم حرية، حُجّبت النساء وقيّد الرجال ومُنعت الإباحية، أمّا نحن فعندنا حرية، تصدقون! والله هم في قمة العبودية، لأن من لا يكون محرراً لله سيعبد كل ما هو دنيء، فهو إما عبدٌ لامرأة تحركه يميناً وشمالاً أو عبدٌ لشهوته مثل كثير من الشباب في الصيف، ينزل كل يوم يدور في الشوارع ساعتين، يبحث عن فتاة ليعاكسها! مسكين هذا والله؛ لأنه مقيّد فهو أسيرٌ لشهوته، وهناك من عبدَ السيجارة، يعلم أنها تضره لكنه لا يستطيع أن يقلع عنها، فهو ضعيف جداً وليس حراً.

إذن الحرية أن تكون عبداً لله وحده، ولا يوجد أي شيء آخر يتحكم فيك، لا شهوة تتحكم فيك، ولا تخضع لبشر، الحرية أن كل الذي أمر به رب العباد هو الذي ينفذ، فتصبح حراً من الدنيا كلها، إذن ليس فيك قيد يقيدك في الأرض، وهذا هو معنى كلمة «محرراً»، كلمة مهمة جداً وخطيرة جداً في القرآن، وللأسف نحن غير منتبهين لها، فامرأة عمران تقول: يا رب، أريده ولداً فقط ليحرر المسجد الأقصى، والله لا أريد منه شيئاً، جميع النساء أو أكثرهن يردن الأولاد لأجل أن يفرحن بهم، أو لترى ابنها يكبر أمام عينيها، وهناك من يريد الولد ليورثه ماله أو ليكون بجانبه في كبره، وهناك من يريده ليساعده في العمل وهناك من يريده، ومن يريده، كلها أمور دنيوية، لكن من يقول: أتمنى أن يموت ابني شهيداً في سبيل الله؟ طبعاً لو قلنا ذلك لأم فإنها ستقول: بِعْد الشرّ إن شاء الله الذين يكرهوه هُم الذين يموتون شهداء في سبيل الله!

تحرّر أيها الشاب، يا من تقرأ هذا الكلام تحرر من كل ما جعلك ذليلاً إن لم تصبح حراً لله ستصبح ذليلاً لغير الله، ولذلك انظروا إلى أكثر شخص عبد وذليل ومقيد في الأرض، ستجده أكثر شخص بعيد عن الله، هناك إنسان ذليل أمام كأس، وآخر ذليل أمام سيجارة، وآخر ذليل أمام امرأة فيظل عبداً ذليلاً لها، أما الحر فعلاً فهو الذي يكون منتمياً لله، ولا يربطه قيد في الأرض يسيطر عليه.

قصة حقيقية:

أعرف أباً وأماً كانا محرومين من الإنجاب عشر سنين، أمرّ مقارب لامرأة عمران، عشر سنين حرمان ثم رزقوا بولدٍ، وفي يوم ميلاده سأل الزوج زوجته: ماذا نريد من هذا الولد؟ (تذكر: عشر سنين وهما محرومان من الإنجاب!) قالت له: نريده أن يموت شهيداً في فلسطين، فقال لها: اتفقنا! (بعد عشر سنين حرمان من الإنجاب!) قال لها: إذن علينا من اليوم أن نجهّز الولد لذلك، ويجب أن يجد الولد حين يكبر أبوين يحبان بعضهما، ويجد علاقتهما سوية ويجدهما متدينين ويجدهما يصليان الفجر ويقومان الليل، ويجدهما عباداً لله ومالهما حلال، ويجب أن يربياه أحسن تربية ويعلمانه رياضة ويتعلم «إنترنت»، سنعدّه بطريقة صحيحة، يعني: نربي هذا الولد ليكون جاهزاً لنصرة دين الله ولعزّته، فيا ترى هل الآباء سيعدون أولاداً محررين؟ يا ترى الشاب الأعزب هل يريد زوجة من نوعية امرأة عمران؟

فتقبل مني:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ [آل عمران: 35]، ماذا يتقبل منها وهي لم تنجب بعد؟ وإنما تعني: تقبل مني نيتي، ومثلها:

تقبل مني المال، تقبل مني الدعوة، تقبل مني النية، وكأن معنى الكلام أنك أردت من الله شيئاً لكن هذا الأمر صعب المنال، فتنوي نية صالحة، مثلاً أقول: يا رب، لو أصبح معي مليون جنيه سأعمل للإسلام كذا وكذا، ولتكن نيتك وقل: تقبل مني، هل تصدق؟ سيرزقك الله بها، وإن شاء الله ربنا يتقبلها منك، ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، لاحظوا أن كلمة السميع العليم جاءت في آيتين متتاليتين: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: 34]، والأخرى تقول: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أنت من يسمع كلامي وأنت العليم بنيتي.

افهم حفظك الله:

فلما وضعتها حدث أمر عجيب جداً، مفاجأة، هي تقول: يا رب، نريد رجالاً يحررون المسجد الأقصى أريده ذكراً، أريده ولداً: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ [آل عمران: 36]، هي كانت تقول: تقبَّل مني، فإذا بالمفاجأة، لقد كان المولود بنتاً! بعد كل النوايا والنذور، وبعد انتظار عشرين سنة وهي تتمنى أن يكون ولداً، صار عندها بنتاً، بدأت المرأة تحس بشيء من الإحباط، كانت تريده ولداً، أنا أريد أن أظهر لك كيف سيدير الله الكون، وهنا لمحات جميلة جداً، هل تتخيل معي أيها القارىء إذا وضعت نفسك مكان امرأة عمران؟ عشرون سنة تتمنى أمنية وبعد العشرين سنة بدأت الأمنية تتحقق والفرحة غامرة، ثم فجأة! الحلم تحطم؛ لأن المولود بنتاً.

ولكن يا رب أنا دعوتك: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، انظر ماذا تقول الآيات؟ وكأنها تعتذر لله: يمكن لنيتي أن لا تكون خالصة أو لم أكن مخلصة لك بها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، فتقول تباعاً لكلامها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، أنا كنت أريده رجلاً لكنها بنت.

وهنا نستفيد شيئاً جميلاً جداً، أحياناً تكون نيتك حسنة جداً، أنا سأعمل كذا ، سأقلع عن المعصية هذه وتكون متحمساً جداً وتدعو الله قائلاً: والله لن أفعل الذنب الفلاني مرة أخرى، ثم بعد فترة تجد أن دعاءك لم يُستجب، والأمنية الكبيرة لم تتحقق، فإياك أن تظن أن معنى هذا أنّ الله لم يقبلك، إنما يمكن أن يدبر الله لك أمراً آخر وتكون دعوتك بالفعل قد تقبلها الله.

لكن أحياناً يكون عند الإنسان طموح، أتمنى أن أعمل للإسلام كذا وكذا، قل لي ماذا أعمل للإسلام وأنا أعمله، وفي النهاية يجد نفسه لا يستطيع أن يعمل أي شيء، فيبكي:

كنت أتمنى أن أعمل كذا وكذا، لماذا يا رب لم تساعدني؟ كنت أتمنى أن أطيعك لماذا لم تحقق أمنيتي؟ إياك أن تفكر أنك دعوت الله بإخلاص وأن دعاءك لم يُستجب، الله تعالى سيستجيب لك ويحقق لك أمنيتك، مثل ما سنرى في حياة هذه السيدة المؤمنة.

لماذا يبكي الطفل لحظة الولادة؟

ثم قال: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، لكن فجأة عادت ثقتها في الله وقالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، مريم في اللغة عندهم ماذا تعني؟ هل تعلمون؟ معناها: «العابدة»، يا رب، سأسميها مريم، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، فهي وإن كانت بنتاً فعلى الأقل اجعل من ذريتها رجالاً ينصرون هذا الدين: ﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، يقول النبيّ ﷺ: **«ما من مولود يولد إلا يمسه الشيطان حين يولد»**[1]، ويمسه هنا معناها: يوكزه أي: يصيبه من حقد ومن غل الشيطان، **«فيستهلّ صارخاً من مسّه إياه»**، فمن ذلك صرخة المولود فهذا هو سبب بكاء المولود بعد الولادة، فهو يبكي من وكزة الشيطان: **«إلا مريم وابنها عيسى عليهما السلام»**، لم يستطع الشيطان أن يوكزهما وذلك بدعوة امرأة عمران: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

انظروا للدعاء يا إخواني، ادعوا! تخيلوا دعوة خلدت إلى يوم القيامة لماذا؟ لأنها دعت بإخلاص، يا رب، لم تحقق طلبي لكني مصرة أن يكون من ذريتي أناس تنصرك، وأن تعيذها هي وذريتها من الشيطان الرجيم.

فكل البشر سيمسهم الشيطان إلا ابنتك وحفيدك لن يمسهما الشيطان، أيتها المرأة المؤمنة زوجة عمران.

الحصن الحصين:

نقطة أخرى في قوله تعالى: ﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، حديث للنبيّ ﷺ حديث الجماع، وفيه يعلمنا النبيّ ﷺ أن الرجل إذا أتى أهله وحدث حمل فإن الشيطان لا يستطيع أن يمس هذا الولد، تخيل ماذا علمنا النبي؟ دعاء عظيم، حين يأتي الرجل أهله ليعاشرها في فراشه يقول ماذا؟ يقول دعاء المعاشرة الزوجية، النبيّ ﷺ لم يترك لنا أمراً إلا وقال لنا فيه دعاء، كل أمر يعلّمك ماذا تقول فيه، ماذا تقول عند دخولك

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 274).

الحمام، ماذا تقول عندما تخرج من الحمام، ماذا تقول عندما تأكل، ماذا تقول عندما تلبس جديداً، ماذا تقول عندما تنظر في المرآة: **«اللهم كما حسّنت خَلْقي فحسِّنْ خُلُقي»**[1]، وعلمنا دعاء جميلاً جداً إذا أتى الرجل أهله، يقول النبيّ ﷺ: **«إذا أتى الرجل أهله فقال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإذا قضي بينهما بولد في هذه الليلة** ـ أي رزقوا بولد، وولد هنا يقصد بها ولد أو بنت ـ **لا يمسه الشيطان»**[2]، يكون الولد مؤمناً طائعاً لا تخاف عليه فلن يكون عاصياً، عندك وسيلة تضمن بها أن يكون أولادك مؤمنين، فقط بدعاء تقوله لدى معاشرتك لزوجتك!

المرأة ونصرة الإسلام:

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37]، هنا أكثر من شيء، لقد دعت: ربنا تقبل مني أن يكون ولداً، لأن الذي سيحرر بيت المقدس رجلاً، والله يقول إنه تقبلها، يا رب، كيف تقبلتها وهي بنت؟ وهنا سنجد الكثير من المعاني الجميلة، منها: أنه من قال لكِ يا امرأة عمران أن الذي ينصر الإسلام رجال فقط؟ انظروا لهذا المعنى الجميل: أنتِ كنتِ تظنين أن بيت المقدس لن يتحرر إلا برجال، لا إنه يُحرَّر بالنساء أيضاً، ولذلك سنرسّخ هذا المعنى عندكِ وعند الأمة كلها، سنجعل بداية تحرير المسجد الأقصى بفتاة هي «مريم» وليس بولد، انظروا للإسلام ولتكريم المرأة، انظروا لاعتبار المرأة، تستطيع أن تنصر الإسلام مثلها مثل الرجل تماماً، فامرأة عمران كانت تحلم برجل وتقول لله: تقبله مني، فقال لها: تقبلناه، لكنها بنت، ستفعل ما لا يفعله الرجال، وسيكون في بطنها من سيعزّ هذا الدين العظيم.

مدبر الأمر:

المعنى الثاني وهو جميل جداً أيضاً: أن الله يريد أن يعلّمها ويعلمنا أن كل شيء يتم بالتدريج، تريدين أن يتحرر المسجد الأقصى أليس كذلك؟ لكن الجيل الموجود الآن لا يصلح أن يحرره، أما الجيل الذي يليه فسيكون منه من يحرره، فهذه المرة فسيكون المولود بنتاً ومن في بطنها سيكون عيسى عليه السلام، فاصبري.

انظر، عليك ألا تتسرع، أرأيتم يا شباب؟ كأن الله يعلمنا أننا حين نطلب شيئاً فإن له سنناً في الكون، فالتغيير يتم خطوة خطوة.

---

(1) ذكره **السيوطي** في «الدر المنثور» (2/ 73)، وذكره **التبريزي** في «مشكاة المصابيح» (الحديث: 5066).

(2) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 705).

إذن حتى يتحقق هذا الأمر فإننا بحاجة لزمن، لكن السيدة دعت الله وتمنت لو أن الله يحقق أمنيتها في حفيدها، ومعلوم كم يكون حب الحفيد عند جديه.

الله تعالى يريد أن يعلمنا أمرين: **الأول**: أن البنت مثل الولد في نصرة الإسلام، **الأمر الثاني**: الصبر.

فاعلموا أنه أحياناً تكون عدم الاستجابة هي عين الاستجابة، ويكون ما قدّرَه الله هو السعادة الكبرى التي لا يتخيلها الإنسان.

حلاوة المناجاة:

أريد أن أرجع للآيات للإشارة إلى أمر جميل جداً هو: حلاوة المناجاة، تعرف كيف كانت امرأة عمران تدعو الله وتناجيه؟ اقرأ كلام امرأة تكلم ربنا بشكل بسيط جداً دون تنميق زائد، انظر إلى كلامها وهي تقول: يا رب، أنا وهبت لك الذي في بطني، خالصاً لك يا رب، فتقبل مني، البعض متخيل أنه إذا أراد الدعاء لله فعليه أن يقول: اللهم إني أسألك كذا وكذا، يا رب أعطني كذا وكذا، يا رب ارزقني كذا وكذا، لكن أم مريم هنا تعلمنا شكلاً جديداً من الدعاء اسمه «المناجاة» أن تكلم الله ولو باللغة العامية: «يا رب أنت راضي أو لا، يا رب، سامحتني أم لا، يا رب أنا نذرت لك، لو تبت عليّ من الذنب الفلاني هذا، سأعمل كذا وكذا، هل تستطيع أن تكلم الله بهذا الشكل؟ تقول مثلاً: «يا رب، سأسمي ابني كذا وكذا حتى ينصر دينك»، تستطيع وأنت في السيارة، وأنت ذاهب لعملك أن تكلم ربنا، «يا رب سامحني، يا رب ارحمني»، هذه العبادة حلوة جداً يا إخواني، وللأسف لا نلتفت إليها إلا قليلاً، وهي عبادة لا تحتاج إلى وقت، وعبادة تستطيع أن تقوم بها على أي حال، وأنت في العمل وأنت في المواصلات.

بمناسبة المناجاة أعرف شاباً كان يلعب معنا كرة القدم، وأثناء الضحك والمرح، تخيل في غمار اللعب، يبقى هذا الشاب مرتبطاً بربه جداً ويقول: اللهم كما أضحكتني في الدنيا فأضحكني في الجنة، تخيل! في غمار لعب الكرة والضحك يفعل ذلك.

تستطيع أنت أن تقوم بهذه المناجاة، وأنت مستشعر أنك محتاج له وأنك فقير إليه، وستشعر أن الله يحبك كثيراً، وستحسّ أنك تقربّت من الله كثيراً لأنك تكلمه من قلبك، أعرف شخصاً حكى لي أنه معتاد كل يوم وهو ذاهب للكلية أن يناجي الله ويقول: «هل سامحتني؟ هل أنت راضٍ يا رب؟ ليس لي غيرك، لو تركتني أضيع، ولن أتحمل غضبك».

افعل مثله وجرب وسترى كم ستقرب من الله ﷻ.

الوفاء بالنذر:

لما كانت أم مريم مخلصة جداً ونيتها خالصة وموصولة بالله رزقت بالسيدة مريم، حين أرضعتها وفطمتها، أخذتها وذهبت بها إلى المسجد الأقصى، تنفذ النذر لأنها مخلصة، هناك أناس كثيرون ينذرون ثم لا يوفون بهذا النذر ويقولون: نذرته في لحظة ضعف! لكن هي نذرت نذراً ولم يتحقق ما أرادته، ومع ذلك أخذتها وذهبت إلى المسجد الأقصى، وكان إمام المسجد الأقصى زكريا وهو ـ زوج ابنتها الكبرى ـ فقالت له: «نذرت إن رزقت ولداً أن أجعله خالصاً لخدمة الأقصى، لكن الله رزقني بنتاً، ولن أغير النذر ابنتي في خدمة المسجد الأقصى!» انظر حبّ المسجد يا أخي، وانظر للمرأة المخلصة، أعرفت من الذي يصطفيه الله؟ المخلص من عاش حياته لله، الذي جعل قضية حياته الإسلام، هؤلاء الذين يحفظهم الله ويصطفيهم، ويُعلي من قدرهم ويجعل الناس كلهم يهتدون على أيديهم، فزوجة عمران ذهبت بالسيدة مريم للمسجد وطلبت من سيدنا زكريا عليه السلام أن يقوم على تربيتها، أتصدق! وسيبني لها محراباً خاصاً بها، لتصلي فيه وتتعبد الله فيه وتخدم المسجد الأقصى!

وبدأ سيدنا زكريا عليه السلام بجمع كل الأئمة وكل العباد الذين يقيمون على خدمة المسجد الأقصى من بني إسرائيل، وكان ملاحظاً أن على وجه الفتاة نوراً فبدؤوا يتنازعون عليها، كل واحد منهم يريد أن يكفلها، استمع للآية ماذا تقول: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44]، ما معنى يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم: اختصموا وكل واحد يقول: أنا الذي سأكفلها، إذاً ما الحل؟ كل واحد يأتي بالقلم الذي يكتب به التوراة ويرميه في الماء، فهذه الأقلام تُكتب بها التوراة فهي إذاً أقلام طاهرة، رمى الكل القلم وزكريا معهم، كل الأقلام جرت مع الماء وبقي قلم واحد مرفوعاً، انظر إلى قدرة الله تبارك وتعالى، قلم واقف في وسط الماء لا يتحرك وكأنه نخلة أو زرع ثابت أو نبات في وسط الماء، ثابت لا يتحرك! فكان هذا القلم هو قلم سيدنا زكريا عليه السلام، فكفلها سيدنا زكريا وبدأت السيدة مريم تنشأ في رعاية هذا النبيّ الكريم.

مهنة النبي زكريا:

من هو زكريا هذا؟ هو نبي الله، جاء ذكره في القرآن سبع مرات، أهمها في سورة «آل عمران» وفي سورة «مريم»، وكان النبيّ ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري يقول: **«كان نبي الله زكريا نجاراً وكان يكسب من عمل يده»**[1]، أنا أريد أن تفكر معي،

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 405).

لماذا يقول لنا النبيّ هذا الكلام؟ يريد أن يقول لك أنه لا يوجد نبي من الأنبياء إلا وكان صاحب مهنة أليس كذلك؟ يعني: لا يوجد نبي يقول: أنا أدعو لله.. فقط!

للأسف هناك بعض الشباب يظل مهتماً بالدعوة بشكل كبير، فيبدأ بالرسوب؛ لأنه رتّب حياته بشكل خاطىء، أو بعد أن كان متفوقاً في عمله أراد أن يحفظ قرآناً وأن يقيم الليل وأن يصلي الفجر، ومن هنا تبدأ التوازنات تختل، فيذهب إلى عمله مرهقاً ويفشل في أمور حياته حتى أن الناس يقولون: «أرأيت لقد فشل منذ تدينه»، مع أننا نجد أن نبي الله زكريا كان نجاراً ولم يكن عالة على المجتمع، كان يأكل من كسب يده، لم يذهب إلى أحد ليقول له: أنا نبي أطعمني، وأنفق عليّ! بل كان يأكل من عمل يده، ما رأيك إذا قلدنا سيدنا زكريا؟ أمر طبيعي أن أباك ـ إن شاء الله ـ يساعدك أن تتزوج؛ لأن ظروف الحياة صعبة وأنت لن تستطيع أن «تقف على رجليك» بمفردك، لكن أن تطلب من أبيك أن يزيد لك المصروف في الصيف عشرين جنيهاً من أجل شراء أشياء كمالية فهذا غير مستحب، أنت رجل ويجب أن تنفق على نفسك، ستقول لي: أنا لا أعرف عمل أي شيء، أقول لك: اذهب وتعلّم مهنة، قلّد سيدنا زكريا، وليس معنى قلده أن تعمل نجاراً، قلده وتعلم حرفة.

الحقيقة أن الحديث في هذا الموضوع واسع ومهم جداً، نحن نناقش الإسلام، إما أن نفهمه بشكل تام، وإما لا نفهم الدين نهائياً، إما أن تكون إنساناً ناجحاً أو ليس لك فائدة.

العبادة في حياة المرأة:

ونشأت السيدة مريم في رعاية سيدنا زكريا، وبدأ يلاحظ عليها أشياء غريبة جداً، أولاً: كلما دخل زكريا على السيدة مريم رآها تصلي: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: 37]، قبل أن نقول: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، نقول: ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾، وهو مكان الصلاة، فكلما دخل عليها وجدها تصلي.

أؤكد لكم أن العبودية وقيام الليل وقراءة القرآن عند النساء أقوى منها عند الرجال، ربما لأن وقتهن أكثر أو لأن عاطفتهن أقوى، فيا ليت نساءنا يقلدن السيدة مريم.

اصطفاءان:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: 42]، نحن من بداية الموضوع نتكلم عن صفات الاصطفاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ﴾، انتبه! قال الله: ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾، مرتين وبينهما: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، وانتبه أن هذه السورة نزلت في صحابة النبيّ ﷺ وهم من اصطفاهم الله في «بدر» وأخطأوا في «أُحد» فعاد واصطفاهم مرة أخرى

بعد أُحد، انظر الترتيب مع مريم هو الترتيب نفسه مع الصحابة، فكأن كلاً منا يحدث له اصطفاءان، هذه النقطة لطيفة جداً، اصطفاءٌ أول هو نعمة من الله تعالى أنت لا تستحقها، لكن الله اصطفاك ومن الممكن أن لا تكون مستشعراً لهذه النعمة، فربما تخطىء وهذا بعد الاصطفاء الأول، ربما ترتكب كبيرة، وبعدما كنت متديناً قد تبتعد عن الله، ربما تخلعين حجابك، لكن يأتي الاصطفاء الثاني وكأن الله يقول لك: أنا أعطيتك الاصطفاء الأول من غير طلبٍ منك، ثم أخطأتَ، ولو أنك طلبتَ مني مرة أخرى الاصطفاء سأعطيك إياه. إذن كأن الله تعالى اصطفاك مرة وأنت أخطأت أما الاصطفاء الثاني فلا بد أن ترجع وتقول لله: سامحني واغفر لي ولن أعمل هذا الذنب ثانية، وبذلك يصطفيك ثانية، ولذلك فصل الله بين الاصطفاءين بالتطهير، وليس معنى ذلك أن السيدة مريم أخطأت، وإنما يعلمنا الله أنه إذا حدث للإنسان نوع من الركون وظن أنه أصبح في مأمن يقول له المولى: لا، مطلوب منك أن تبذل مزيداً من الجهد لتحصل على الاصطفاء الثاني.

مؤهلات الاصطفاء:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: 42، 43]، إذن إن كنتَ تريد أن يصطفيك الله فاقنتْ لربك واسجد واركع مع الراكعين، بمعنى: اعبده أكثر، وإن كنت تريد أن يستمر هذا الاصطفاء، وأن تظل مرضياً عند الله تبارك وتعالى، ومنزلتك غالية عند الله، حافظ على عبادات كثيرة مع الله تبارك وتعالى، أكثِرْ من عباداتك السابقة، اعبد الله أكثر، اعمل طاعاتٍ أكثر، ليس بالضرورة أن تكون عبادة معينة، تحب العمرة ولديك مال، قم بها، تستطيع أن تقوم الليل قُم الليل، تحب الصدقة ولديك مال تصدّق كثيراً، المهم أن تكثر من عبوديتك لله فيظل يصطفيك الله إلى أن تموت: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

ليس هناك امرأة في الوجود أعظم من السيدة مريم، لو سألتكم كيف وصلت السيدة مريم إلى أن تكون سيدة نساء العالمين؟ العلماء يقولون: إنها وصلت لذلك بأمرين: أولها العبودية الشديدة، كانت عابدة شديدة العبادة، قلدوها يا نساءنا، إلى كل امرأة تتمنى أن تقترب من منزلة السيدة مريم، وتتمنى أن تصل لاصطفاء السيدة مريم مطلوب منك أمرين: **الأول**: العبودية الشديدة، **والثاني**: عفة شديدة.

قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: 12]، هي لم تبلغ منزلة سيدة نساء العالمين إلا بالأمرين معاً، والأمران شرطان أساسيان للرجال والنساء الذين يريدون أن يصطفيهم الله، تريد أن يصطفيك الله إلى أن تموت؟ أكثِرْ من عبوديتك لله، أكثر من

عبوديتك، ثم العفة، العفة، انظر للسيدة مريم عندما أتاها الوحي يبشرها بالغلام: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي﴾ [مريم: 20]، ثم تقول بعد قليل: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: 23]، الحقيقة، العفة هي عنوان السيدة مريم التي أحصنت فرجها، لقد كانت شديدة البعد عن أي طريق يؤدي إلى فاحشة، لا يمكن أن تقترب من أي فاحشة، يا نساءنا، أرجوكم مسألة العفة مهمة جداً، للأسف لم يعد لها معنى في هذا العصر، عندما تدخل مجتمعات الشباب والبنات ترى العجب العجاب! أتكلم بصراحة: كم شاباً لم يمسك بنتاً من يديها؟ كم شاباً لم يقبل امرأة؟ وكم فتاةً لم يقترب منها شاب قبل زواجها ولو بلمسة أو قبلة؟ كم فتاةً حافظت على نفسها؟ فما بالك بالزواج العرفي بين شباب وبنات في الجامعة؟ فما بالك بزنى يحدث؟ لا يمكن أن يحدث لك اصطفاء كامل إلا بعفة شديدة، انتبه أيها الشاب وخاصة في أيام الصيف والعطل والرحلات والسهرات، إخواني أكثر شيء يضيّع اصطفاء الله تبارك وتعالى ترك العفة، صحيح أن الله يستر عباده لكن هذا الستر يزول إن حدث زنى، تخيل.. الله ستار إلا أن ستره يزول عند الزنى، انتبه ماذا تقول لك الآية: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: 2]، يشاهدونهما وهما يُعذبان، كيف هذا والله هو الستّار؟ حين نتجاوز العفة، ربنا تبارك وتعالى رؤوف رحيم لكن عند الزنى انظر ماذا يقول لك: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 2]، ليس هناك رأفة ولا ستر، الموضوع كبير، يقول النبيّ ﷺ: «**لأن يطعن في رأس أحدكم بِمِخْيَطٍ من حديد** - يدخلُ سيخ حديد في رأسك ويخرج من الناحية الأخرى - **خير له من أن يمسَّ امرأة لا تحل له**»[1]، حديث صحيح رواه الطبراني.

هذا إن حدث مجرد مس لامرأة لا تحل للإنسان.

فكيف بما أكبر وأشنع من ذلك؟

مقارنة مبكية:

مسألة العفة شرط أساسي في اجتباء السيدة مريم، ماذا حدث عندنا في قضية العفة، الشباب أصبح تجذبه الشهوات بل وتسيّره أحياناً.

قارن بين فتاة تظلّ طوال الليل تتعبد إلى الله تعالى وتقرأ القرآن، وأخرى تبقى طوال الليل بجوار الهاتف تنتظر حبيبها أن يحدّثها! أو تنتظر شاباً ربما لا تعرفه تكلمه وتحدث بينهما صداقة، قارن بين من تبكي خاشعة وهي تصلي ركعتين في ظلمة الليل تطلب رضى

(1) ذكره **الهيثمي** في «مجمع الزوائد» (4/ 326).

ربها وعفوه، والتي تبكي طوال الليل؛ لأن صاحبها تركها وأبدلها بأخرى!

العفة عفة اللسان وعفة العين وعفة الجوارح وحتى عفة القلب، عفة القلب ألاّ يشتهي الزنى أو يشتهي الحرام، هذه العفة هي التي تحافظ على اصطفاء الله للعبد.

يا أخوة، انظروا إلى الحيوانات ستجدونها تتصف بالعفة، مثال ذلك: أنثى الحمام الوديعة التي نحبّ أن نشاهدها لرقّتها وجمالها، تنقلب وحشاً لو اقترب منها غير ذكرها.

يبدو أن الشيطان لعنه الله، قضيته في الأرض التركيز على إفقاد الأرض العفة؛ لأنه يعرف أن الاصطفاء قائم عليها.

عفة فاطمة:

انظر إلى عفة الصحابيات، ومن ذلك السيدة فاطمة، فمرّة كانت تجلس بجوار زوجها سيدنا علي بن أبي طالب، فوجد النبيّ ﷺ الباب مفتوحاً وكأن سيدنا علي قال له: ادخل، وكانت السيدة فاطمة تقعد بجوار سيدنا علي على سريرهما، فلما دخل النبيّ ﷺ خجلت السيدة فاطمة أن الرسول ﷺ رآها في ذلك الوضع، فغطت بالملاءة رأسها خجلاً من رسول الله ﷺ، أمر يضحك ويبكي في آن واحد، أليس كذلك؟ تأمل هذا الخجل وهذه العفة حتى في المشاعر.

العفة المفقودة:

اجتمع النبيّ ﷺ مرة بالنساء لأخذ البيعة منهن على الإسلام، وبينما كان الرسول يذكر بنود البيعة قال: «**ولا يزنين**»[1]، فغطت النساء رؤوسهم خجلاً من هذه الكلمة! ولم تنطق منهنّ واحدة إلا هند بنت عتبة قالت مستنكرة: وهل تزني الحرة! الآن الفتاة تذهب لأبيها وتقول له: لقد تزوجت عرفياً! ونحن نسمع الآن في الشركات الكبيرة وبالذات الشركات «المالتي ناشيونال» (المتعددة الجنسيات) كيف أصبحت العلاقات مفتوحة بين رجال متزوجين ونساء متزوجات! يا شباب يا بنات التزموا بأمر العفة.

ولكني أتكشف:

جاءت امرأة إلى رسول لله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أُصرع، (يحدث لي صرع)، وإني أتكشف، فادعُ الله ألا أصرع، (تطلب من النبيّ ﷺ أن يدعو لها بالشفاء) فقال لها

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 6/ 365)، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 24/ 261).

النبيّ ﷺ: «**إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك**»[1]، قالت: أصبر ولي الجنة، فمشت ثم رجعت وقالت: يا رسول الله، ولكني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف (يعني: أنا صابرة ولكني لا أريد أن تنكشف عورتي) فدعا لها طبعاً لغاية العفة، فلا بد أن يدعو النبيّ ﷺ فكانت تُصرع وتتحرك ولا تتكشف.

إنه غدرٌ وخيانة:

يا إخواننا العفة، يا بناتنا، يا أخواتنا، المرأة التي يمكن أن تتكلم في الهاتف مع غريب عنها وهي متزوجة ويزيد الأمر بينهما شيئاً فشيئاً، أين العفة؟ الهدف من حديثنا هو الوقوف على شروط الاصطفاء.

تعالوا نلخص ما ذكرنا:

العبادة الطويلة: اعبد ربنا كثيراً وذلك بحضور دروس العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، والتصدق، والاستغفار، وابدأ بالعبادات السهلة، الذكر من العبادات السهلة، أكثِرْ من العبادات، عندما تجد قلبك مخلصاً زد في العبادات، اذهب عمرة، أكثر من العبادات على قدر المستطاع، وهذه من شروط الاصطفاء، ومن شروط الاصطفاء أيضاً: العفة ـ الله يكرمكم ـ العفة ربنا يحفظكم ويحفظنا ويخرجنا من الدنيا على خير ويخرجنا من الدنيا مستورين.

ما أعظم مَنْ تموتُ ولم يمسسها رجلٌ إلا زوجها، يا لها من سعادة غامرة وهي قادمة يوم القيامة فرحة، ويا ويلها يا ويلها من فقدت هذه العفة ولو بقبلة، وهذا طبعاً إن لم تتب عن فعل ذلك، انتبهوا حتى لا نيأس: ماذا علينا أن نفعل لكي ترجع العفة إن أخطأنا؟ يعني: يوجد أناسٌ وقعوا، فكيف ترجع العفة إليهم؟ ترجع بتوبة، تجعلك عفيفاً عند الله تبارك وتعالى، ما هي شروط التوبة؟ شروطها ندم وترك للذنب والعزم على عدم العودة، وبذلك ترجع عفة المرأة التي فقدتها، يقول النبيّ ﷺ: «**يرفع لكل غادر يوم القيامة لواء مكتوب عليه هذه غدرة فلان**»[2]، أي: تأتي يوم القيامة أمام زوجها وعائلتها مكتوب أنها كانت لها علاقة مع الرجل الفلاني!

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 5652)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6516)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» في (الحديث: 1/ 347).

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3186)، و(الحديث: 3187)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 4508)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1581)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 2872).

باقي عناصر الاصطفاء:

الأمر الثالث: الإخلاص وهو موجود في امرأة عمران بدرجة شديدة، أنا أريد الله، أنا ذاهب إلى المسجد لله، أنا نيتي لله وحده.

رابعاً: التسليم بقضاء الله وقدره، تتذكرون رضا امرأة عمران بقضاء الله عندما لم يعطها الولد الذي كانت تتمناه؟

خامساً: عنصر من عناصر الاصطفاء: اختيار البيت والزوجة والزوج الذي يحافظ على دوام الاصطفاء والذي يحافظ على ثباتك أيتها المسلمة.

خمسة شروط للاصطفاء:

1 ـ عبودية مستمرة.

2 ـ إخلاص لله ﷻ ومراجعة دائمة للنية.

3 ـ عفة شديدة.

4 ـ الرضا بقضاء الله والتسليم له في كل حياتك.

5 ـ اختيار الزوجة واختيار البيت.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا على فعل هذه الأمور الخمسة حتى نكون من أهل الاصطفاء الإلٰهي، اللهم آمين.

أنت من أمة المصطفى:

وهنا ندرك مدى الفضل العظيم الذي منّه الله به علينا، فالله سبحانه وتعالى قد اصطفى آدم واختاره، واصطفى نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، وكأن الله نظر إلى قلوب العباد، فاختار أنقاها، فكانوا الأنبياء، ثم نظر إلى قلوب الأنبياء فاختار أولي العزم من الرسل وهم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، ومحمد ﷺ، ثم نظر إلى أولي العزم واختار محمداً ﷺ ثم اختار له أمته!

يا لسعادتنا بهذا الاصطفاء، ويا لفرحتنا بهذا الاختيار لنا: أمة الحبيب ﷺ. بل هناك أكثر من ذلك، فأنت أيها المسلم ـ وأنت أيتها المسلمة ـ تدخل ضمن هذا الاصطفاء، بدليل أن الله سبحانه وتعالى اختارك لتكون مسلماً، وكذلك أنتِ، ثم اصطفاكما من دون المسلمين ليجعلكما من المصلين، ثم اصطفاكما لتكونا من المتديّنين في زمن قلّ فيه الصالحون.

واللّه ان هذه المنة، هذه النعمة، نعمة الإسلام، نعمة التدين التي اصطفاها اللّه سبحانه وتعالى لنا تحتاج منّا لشكر دائم آناء الليل وأطراف النهار.

فالنعم تحفظ بالشكر، فاللهمّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهمّ لك الحمد على نعمة الاصطفاء، ولك الحمد على نعمة الإسلام، ولك الحمد على نعمة الإيمان، لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السماء وملء الأرض وملء ما بينهما.

تعلموا من البقرة!

سؤال يطرح نفسه عند تلاوة سور القرآن، لماذا سميت السورة بهذا الاسم؟ فمثلاً لماذا سميت سورة البقرة بهذا الاسم؟

وللإجابة لا بد من معرفة تفاصيل السورة، ثم هل هي سورة مكية أم مدنية؟

نزلت سورة «البقرة» في المدينة في أوائل زمن هجرة النبيّ ﷺ، أمة جديدة، جيل جديد، مثل بني إسرائيل في أوّل أمرهم، لقد كانوا جيلاً جديداً، ولكن وقعوا في أخطاء شنيعة.. إياك يا أمة محمد أن تقعي فيها، إيّاك أن تنزلقي كما انزلقوا في شهواتهم الدنيئة، إياك أن تكوني مثلهم.

سورة «البقرة» تحكي أخطاء اليهود، وتحدّثنا عن تصرفاتهم وكيف يفكرون، وتبلورت المشكلات والأخطاء في قصة البقرة: الجدل، سوء الأدب، عدم السمع والطاعة، الاستهزاء، يؤمرون بذبح البقرة فيقولون: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: 67]، صفات خطيرة تؤهل أيَّ أمة للوقوع في براثن الشهوات، وتجعل من يتصف بها في أسفل سافلين، حظيت بهذه الصفات تلك الأمة التي أُمرت بذبح البقرة.

هكذا كانت سورة «البقرة» نبراساً للأمة المسلمة، تحلل لهم حال بني اسرائيل وأخطائهم حتى لا تتكرر في حياتهم.

نور النور!

وكذلك سورة «النور» لماذا سميت بهذا الاسم؟

إن سورة «النور» تتحدث عن كيفية الحفاظ على المجتمع من الضياع، لذلك جاء فيها حد الزنى، والتحذير من القذف بأي امرأة إلا ومعك أربعة شهود، وتتحدث أيضاً عن الحجاب وفرضيته، وعن غض البصر.

أشياء لو فعلها الناس ينتشر النور والطهر في المجتمع، ومن هو مصدر النور؟ هو الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، وأين ينزل النور؟ ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: 36]، وعلى من يتنزل النور؟ على: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 37].

هكذا تكون سورة «النور»، لمن أراد أن يسير في النور ويكون ذلك باتباعه للأوامر الموجودة في السورة والانتهاء عن النواهي الموجودة فيها وإلا: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: 40].

إلى الباحثين عن النور، ستجدونه في سورة «النور».

النساء توضح ذلك!

ولماذا سميت سورة «النساء» بهذا الاسم؟ إن سورة «النساء» تتحدث عن المستضعفين في الأرض، تتحدث عن الناس المغلوبين على أمرهم، تتحدث عن اليتامى، عن الأقليات، وتوجه رسالة إلى الناس أن اعدلوا، لذلك اختار الله سبحانه وتعالى نموذجاً من هؤلاء الضعفاء، وهم النساء، وكأن الله سبحانه وتعالى يقول: إن الذي يستطيع العدل في بيته يستطيع العدل في الدنيا كلها.

لذلك سميت السورة بسورة «النساء».

ما أحلى الحياة مع القرآن الكريم، وما أحلى فهمه وتدبر معانيه، ابحث عن سبب تسمية كل سورة لتسعد بالفهم ولتأنس بالقرآن.

آل عمران هي الدليل:

استعرضنا هذه السور الثلاث لنستنبط سبب تسمية سورة «آل عمران» بهذا الاسم.

سورة «آل عمران» كانت في الفترة ما بين غزوة بدر وغزوة أُحد، نصر الله المسلمين في بدر، وهذا اصطفاءٌ منه سبحانه، في غزوة أُحد عصوا ربهم فهل يزول الاصطفاء؟

لا، لم يزل وأعطاهم الله سبحانه وتعالى فرصة ثانية، لذلك كانت الموعظة والتوجيه لهم من سورة آل عمران.

فهذه السورة تتحدث عن عائلة اصطفاها الله سبحانه وتعالى لمواصفات فيهم، فيا

مسلمون، تعلموا من هذه الصفات وعضّوا عليها بالنواجذ حتى لا تقعوا مرة أخرى بعدم سماعكم لكلام نبيكم، وكأنها بمثابة الدرس العملي التطبيقي.

إنها علامات مضيئة توضحها لنا سورة «آل عمران»، كما وضحتها للصحابة الكرام، استفادوا منها ففلحوا في الدنيا والآخرة، والدور علينا الآن.

واللّه ما أحوجنا في هذه الأيام الى استشعار هذا المعنى.. اقصد الدليل، ووضعه دائماً وأبداً نصب أعيننا.

تحرَّ الحلال:

موضوعنا يدور حول قصة آل عمران، وذكرنا عائلة عمران، فالآية تقول: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، فعندما نوت المرأة نية خالصة تقبل الله منها ابنتها بقبول حسن: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، كلمة: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، تعرفون معنى: «أنبتها»؟ أي: مثل النبات عندما يكبر، يا أخي، خَف على كل لقمة تدخل فمك، يكون فيها شبهة حرام، وإلا ينبت لحمك من حرام، السيدة مريم لا توجد شعرة في جسمها إلا ونبتت من حلال، نبات حسن، يا أخي، انتبه لهذا الأمر، القلم الذي أخذته لتكتبَ به ولم تعيده لصاحبه ولم تشعر بأي مشكلة، أنا أضرب أمثلة صغيرة، فما بالك بالذي كل أكله وعيشه من حرام؟

تذكّر: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، راجع من أين تأكل؟ أرجع ثانية وأقول لك حديث النبيّ ﷺ: **«كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به»**[1].

أرجوكم يا جماعة راجعوا أنفسكم من اين تأكلون، امسك بورقة وقلم وقل مصادر رزقي من اين؛ لان المشكلة اننا أحياناً ننسى، يا أمهاتنا ويا أخواتنا اياكِ ان تدفعي زوجك الى أكل الحرام، حرام عليك أن تمتلىء بطون الأولاد بحرام.

لمَ الخوف؟

ثم يقول تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، اتقت المرأة ربها، جعل الله ابنتها تُكفل في يد أكثر الناس تقوى لله، الذي هو نبي من أنبياء الله وهو سيدنا زكريا، وهذا لأنها كانت مخلصة جداً، فلما تركت ابنتها اختار الله لها أفضل إنسان يكفلها... إلى الآباء والأمهات أتوجّه، هل أنت خائف على ابنك بعد موتك؟ هل أنتِ خائفة يا سيدتي على ابنك بعد موتك؟ اتق الله في ولدك إن أطعمته حلالاً تجد الله سهل له من يكفله حتى لو ما زلت حياً، فزكريا

(1) ذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (5/ 226).

كفلها رغم أن الأم كانت حية لكن الكفالة هنا بمعنى أن هناك إنساناً يرعاها إلى أن تكبر.

انتبه إلى أن هناك أباً أو أماً يعصيان الله في ابنهما أو لا يتقون الله، فيجعل الله في طريق ابنهم صاحب سوء يضيّع ابنهما، وهذا بسبب الوالدين، أما إن اتقيا الله فسيجعل الله ابنهما يعرف إنساناً صالحاً يكفله ليس مادياً فقط بل معنوياً، يعني: يكفله دينياً وأخلاقياً ونفسياً.

التقوى سبب الرزق:

الآية التي تليها تقول: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، سيدنا زكريا الآن هو المتكفل بها، أي: أنه هو الذي يحضر لها كل شيء، حتى طعامها، يعني: السيدة مريم جالسة في المسجد الأقصى تتعلم العلم وتحفظ الدين وتتقرب من الله وتتعبد إلى الله تبارك وتعالى، وسيدنا زكريا عليه السلام هو المتكفل بها، يعلمها ويعينها على العبادة، ويجلب لها حتى طعامها، متكفل كفالة تامة، فهو المسؤول وهو المتكفل، كلما دخل عليها يجد عندها طعاماً، وهو ليس الطعام الذي أحضره هو، هذا غريب جداً، ثانياً: هذا الطعام غير موجود في البلد، غير موجود في فلسطين كلها، يعني: كان يدخل في الشتاء فيجد عنباً ويدخل في الصيف فيجد برتقالاً، هذه الفاكهة ليست موجودة في البلد، وكلما خرج ورجع وجد الطعام موجوداً، معجزة من معجزات الله تبارك وتعالى كيف حدثت هذه؟ ومن أين جاء هذا الطعام؟

سبحان الله، تتقي الله، يبعث لك رزقك! وكان هنا معنى أنه لا توجد معجزة حدثت لأي من الأمم السابقة إلا وجعلها الله تحدث لأمة محمد ﷺ.

كرامات خبيب:

نفس القصة حدثت مع رجل من أصحاب النبيّ ﷺ وهو سيدنا خبيب بن عدي رضي الله عنه، والذي حدث أن سيدنا خبيب بن عدي رضي الله عنه، قتل اثنين من الكفار في غزوة بدر فنذرت زوجة أحدهم أن تشرب الخمر برأس خبيب بن عدي، وستدفع لمن يقبض عليه أي ثمن، وفي وقعة «بئر معونة» احتال الكفار على ثلاثة من الصحابة منهم خبيب بن عدي فقتلوا اثنين منهم وربطوا سيدنا خبيب بن عدي وأخذوه إلى مكة وباعوه لهذه المرأة التي قتل سيدنا خبيب بن عدي زوجها، وربطوه داخل البيت بالسلاسل والحديد؛ لأنهم عندما قبضوا عليه كان ذلك في الأشهر الحرم، قالوا: إنه ـ انظر الأخلاق ـ لا يصح قتله في الأشهر الحرم! فيستنظرون إلى أن تنتهي الأشهر الحرم ثم يذبحونه، إذن أين يضعونه؟ فاختاروا بيتاً من بيوتهم يسكنه

رجل وامرأة وابن صغير لهم، وأوثقوه ووضعوه داخل هذا البيت وربطوه بالسلاسل وأمروا المرأة وزوجها أن يحتفظا به وأن يكونا متيقظين له حتى تنتهي الأشهر الحرم ليقتلوه.

وذات مرة كان الرجل صاحب البيت غير موجود، وتحكي زوجته نفس الذي حدث مع السيدة مريم فتقول: فأدخل عليه ونحن في برد الشتاء (في مكة الشتاء قارس وبرده شديد) فأدخل على خبيب بن عدي في الحجرة فأجد في يده عنقوداً من العنب، ووالله ما في مكة حبة عنب (لا توجد في مكة حبة عنب واحدة وهو مربوط بالسلاسل وجالس يأكل عنباً)، معجزة من معجزات الله تبارك وتعالى.. فتقول المرأة: وعندما أدخل عليه مرة بعدها أجد في يده طعاماً آخر، وفي مرة ثالثة أجد في يده طعاماً ثالثاً، حتى أن السيدة بدأت تتعجب! وفي يوم من الأيام قبل أن يُقتل بيومين أو ثلاثة قال: هل ممكن أن تعطيني موس؟ قالت: لماذا؟ قال: علمنا رسول الله ﷺ أن نقوم بسنن الفطرة، وسنن الفطرة هي: قص الأظافر وتهذيب الشارب وحلق الشعر وإزالة شعر الإبط.. تنظف نفسك، تخيل! سيقتل ويريد أن يقابل الله وهو متمّم سنن الفطرة!

موقف نبيل:

عندما أحضرت له الموس اقترب ابنها الصغير وجلس في حضنه فخافت أن يقتله؛ لأن الموس في يده، ولكنه قال لها: من يخاف الله لا يفعل هذا ـ إلا في حالة التعدي أو الاحتلال كالذي يحصل الآن في فلسطين ـ ما كان لي أن أكون من أصحاب محمد وأفعل ذلك خذي الغلام، كان أمامه فرصة لكن وجد أن هذه ليست من أخلاق المسلمين، وأخذوا خبيب بن عدي وخرجوا به خارج مكة بعد الأشهر الحرم وقاموا بتعليقه في شجرة وربطوه فيها وجمعوا كل قريش، تخيل هذا العدد المهول وكل إنسان في يده سهم وفي يده حجر وكلهم يرمون عليه فبدأ أبو سفيان يقول: لا تقتلوه إنما اضربوه قريباً من يديه وقدميه، لا تقتلوه نريد أن نعذبه فبدأوا يضربون، وخبيب بن عدي رافع الرأس فأوقفوه، وذهب أبو سفيان إليه وقال: يا خبيب، أستحلفك بالله أتحب أن يكون محمد مكانك الآن وتكون أنت في بيتك؟ هل تحب هذا؟ ستموت؟ قل لي الصدق يعني: أي إنسان في هذه اللحظة سيقول الصدق فقال: والله ما أحب أن يكون رسول الله في بيته ويشاك بشوكة، فكيف أحب أن يكون مكاني، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد لمحمد.

نعم أصلي ركعتين:

ثم قال له أبو سفيان: أتحب شيئاً يا خبيب، تطلب أمراً يا خبيب قبل أن تموت قال:

نعم، أحب أن أصلي ركعتين قال: أنزلوه حققوا له طلبه، انظروا لأبي سفيان العدو هزته قوة الرجولة ففكوا وثاقه فصلى ركعتين خفيفتين بسرعة وقام فنظر لأبي سفيان وقال: لولا أن تظنوا أني أخاف الموت لأطلت فيهما ما شاء الله أن أطيل، فكان أول من سن ركعتين قبل الموت، ثم أعادوه وربطوه وبدأ يقول شعراً جميلاً جداً يقول لهم:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

أي: طالما سأموت مسلماً أنتم تظنون أنكم ستخيفونني عندما تقتلونني، ولكني أبداً ليس عندي أي فرق فكيفما مت سأموت فلا فرق:

وذلك في ذات الإلٰه وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

أي: والموتة هذه لأجل الله سيبارك في جسم مقطع ستين قطعة! ثم وقف يدعو عليهم بأعلى صوته ويقول: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً، فعندما دعا بها قام أبو سفيان وقال لقريش: انبطحوا على الأرض كي لا تصيبكم الدعوة!

من الأقوى؟

سبحان الله! انظر قوته وهو يقولها، من الذي يخاف؟ فأصبح هو الوحيد الذي يرفع رأسه وكلهم على الأرض، فلما رأى النظرة هذه ضحك وقال: اللهم بلغ عني رسولك ما فعلته.. بلغ يا رب النبي، هذه الوقفة الرجولية التي وقفتها هذه فينزل سيدنا جبريل من السماء فوراً، يا رسول الله، حدث كذا وكذا لخبيب بن عدي وهم يقتلون خبيب بن عدي ويأمر النبيّ واحداً من الصحابة يقول له: «**اذهب بسرعة إلى مكة وأحضر لي جثة خبيب بن عدي**»، فهذا الصحابي يقول: وصلت والدنيا قد أظلمت فصعدت على النخلة التي كان مربوطاً عليها، وكنت خائفاً أن يراني أحد فأقتل ففككته حتى أنزل به من على النخلة فوقع فنزلت من على النخلة أبحث عنه فلم أجده ـ لا زلنا نكمل المعجزة ـ مسألة المعجزات مع الأمم السابقة، قصصت لكم قصة خبيب بن عدي لأقول لكم أن المعجزات متكررة ـ فيقول الصحابي ظللت أبحث عنه؛ لأنه لا يستطيع أن يعود للنبيّ بدونه فانتظر حتى يصبح الصباح، وعندما طلع النهار لم يجد الجثة فرجع للنبيّ حزيناً لأنه بعثه في مهمة ولم ينجزها، فلما دخل على النبيّ ابتسم له النبي وقال له: «**لا عليك دفنته الملائكة**»[1].

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 4086).

يا سارية الجبل الجبل:

الآيات العظيمة في عهد أمة النبيّ ﷺ كانت كثيرة، وكرامات كثيرة حصلت للصحابة.

ليست الفكرة أن السيدة مريم أكلت العنب في الشتاء، الموضوع أن الله بيده كل أمر وأن قوانين الكون الثابتة ليست ثابتة عند الله. يعني: هناك قوانين ثابتة للكون لكن هل إرادة الله خاضعة للقوانين هذه؟ إذا كان هو الذي وضع هذه القوانين فسبحانه وتعالى، انظر مثلاً سيدنا عمر بن الخطاب واقف على المنبر يخطب الجمعة، كان هناك جيش في العراق يقوده سيدنا «سارية» فسيدنا عمر بن الخطاب واقف على المنبر والجيش في المعركة، والمعركة ستبدأ بعد أسبوعين أو ثلاثة وأثناء الخطبة كان يقول: اتقوا الله وفجأة أوقف الخطبة وقال: يا سارية الجبل الجبل يعني: الزم الجبل، فالناس نظروا لبعضهم متعجبين فقالوا: يا أمير المؤمنين، لماذا قلت ذلك؟ قال: كأن الله أراني أن سارية في مأزق وأنه لا نجاة له إلا باللجوء إلى الجبل وهو لا يدري، ويمر شهران ويرجع سيدنا سارية منتصراً فقالوا له: ماذا حدث؟ كيف انتصرت؟ قال: والله كاد العدو أن يفتك بنا لولا أني سمعت صوت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في أذني يقول لي: يا سارية، الجبل الجبل فكأن الله ألهمني أن هذا النداء نداء لإنقاذنا فلجأت إلى الجبل فانتصرنا على أعدائنا.

اذن يا جماعة الله قادر وفلسطين.. بإذن الله ستحرر، والقدس سترجع في يوم، لكن المهم أن نبقى مؤمنين وأن يصبح فينا أحد مثل خبيب بن عدي ويصبح فينا أحد عابد مثل السيدة مريم، وذكرنا أن كلمة مريم يعني: العابدة فمن يصير من العباد؟

رزق مكتوب:

نعود ثانية: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، هو لا يشك فيه يا إخواني فهو يقول لها: أنى لك، أي: يسأل عن الكيفية من أين هذا الطعام؟

وهنا وقفة لطيفة، أنت تعلم ماذا يوجد في بيتك فعندما تجد فيه أشياء زائدة عن ميزانية بيتك والطعام غير طبيعي لا بد أن تسأل أهلك، ليس بنية الشك إنما بنية الاستفسار وبنية الإعانة وبنية أنه لو كان هناك شبهة أو شكاً من أمر نصلح الأمور: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، هي تقول له: لست أنا التي أحضرته،

فوجئت مثله كلما تعبت من العبادة تجد أن الله رزقها وهذه نقطة لطيفة جداً، يعني: أن السيدة مريم كلما تعبت من التعبد تجد هذا الرزق أمامها ثم تتعبد فتجد الرزق أمامها، فتأكل فتنشط للعبادة ثانية، كأن المعنى الجميل أن الله عندما يجد من عبد حبه للعبادة يسهل له شؤون حياته.

املأ حياتك بالعبودية لله وانظر ستجد أن الله سيسهل لك شؤون حياتك.

كيف؟ والله إن العباد والمقبلين على حب الله وعلى طاعة الله تيسر لهم شؤون حياتهم من حيث لا يدرون، ويجدون الأرزاق آتية لهم، واسألوا الناس العباد لو أنك تعلم أحداً يحب العبادة قل له: من أين يأتيك الرزق ستجد أن الله يرسل له الأرزاق وعندي الدليل على هذا الكلام، حديث قدسي يقول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وكفلت لك رزقك فلا تتعب ـ تتعب هنا ليس معناها لا تعمل، تتعب هنا أي: لا تشغل قلبك وعقلك لكن اعمل ثم تفرغ لعبادتي إن قلَّ رزقك فلا تحزن وإن كثر فلا تفرح إن أنت رضيت بما قسمته لك بقيت ـ متفرغاً لعبادتي وراضياً بالرزق الذي قسمته لك ـ أرحت بدنك وعقلك وقلبك وكنت عندي محموداً، وإن لم ترض بما قسمته لك أتعبت بدنك وقلبك وعقلك وكنت عندي مذموماً، ثم لأسلطن عليك الدنيا تجري فيها جري الوحوش في الفلاة ثم لا يصيبك منها إلا ما قسمته لك»، يا إخواني، اعبدوا الله ولا تشغلوا أنفسكم بشواغل الدنيا يضمن لكم أرزاقكم ويفرحكم بعبادتكم له.. هو خلقكم لعبادته.

تقرب لربك:

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، علم سيدنا زكريا أن الله سبحانه وتعالى رزقها الشيء في غير أوانه، فلماذا لا يرزقني الولد في غير أوانه لذلك الآية تقول: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: 38]، فسيدنا زكريا لم يكن يدعو قبل ذلك أن يرزقه الله بالولد: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾، حدث في هذا الجو أنه رأى آية أمام عينيه فقال: وأنا أيضاً يا رب لي أمنية أرجو تحقيقها، بماذا نخرج من هذه النقطة؟ نحن نقرأ الآيات ونريد أن نخرج منها بأشياء لنا فإذا أراك الله آية أمام عينيك استفد منها بسرعة فكلمة: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾، قالها في هذا التوقيت؛ لأن سيدنا زكريا وجد أمامه آية واضحة جداً وهي إعزاز الله لدينه.

الأولاد هبة من الله:

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾، كان سيدنا زكريا رجلاً عجوزاً لكن عندما رأى آية مبهرة من آيات الله ﷻ دعا: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: 38]، نريد أن ننتبه إلى كلمة: ﴿ذُرِّيَّةً﴾، كلمة الذرية في القرآن لا تأتي إلا ومعها كلمة «هبة»، المرء يعتقد أنه هو الذي أتى بهؤلاء الأولاد، بالله عليك نقطة المنيّ هذه تصبح رجلاً: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: 59]، انظر الآيات تقول لك: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الواقعة: 58]، انظروا إلى المنيّ كيف يصبح رجل يتكلم، ما هذه المعجزات الباهرة يا رب: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، فكلمة الذرية في القرآن مرتبطة بكلمة هبة: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: 74]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنبياء: 72]، سيدنا إبراهيم يدعو ويقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: 100]، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: 49].

يجب يا إخواني أن ننظر خلف المعاني ونغرزها في قلوب الناس، نحن لا نريد من الملتزمين أن يصبحوا مجرد مستمعين، ولكن أن يصبحوا دعاة يتحركون بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وكلما تتعلم أمراً تنفذه فعندما يولد مولود نبارك لوالده، ماذا نقول: بالرفاه والبنين؟ قل مثلما النبيّ ﷺ قال: **«بورك في الموهوب وشكرت الواهب ورزقت بره وبلغ أشده»**[1]، هذه الكلمات الأربعة احفظها يبارك لك في الموهوب ويعلمك أن تشكره، تريد من الولد شيئين: أن يصبح باراً بك ويكبر أمام عينيك: «ورزقت بره وبلغ أشده»، فسيدنا زكريا عليه السلام قال ودعا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾، هنالك دعا زكريا ربه قال: رب هب لي من لدنك ولياً، سيدنا زكريا مدرك أنه ليس له من المؤهلات التي تجعله يرزق بولد، غير ممكن بالمؤهلات العقلية والعلمية أن يكون له ولد إلا إذا وهبه الله، وننظر وهو يدعو ولعل هذا تمهيد أن نحفظ السورة، وهي من أرق وأجمل سور القرآن.

تبدأ السورة: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ [مريم: 1]، هذه الحروف الخمس يتحدى بها الله الناس أن يأتوا منها بكلام معجز، ومن الملحوظات اللطيفة أن سورة «البقرة» تبتدىء بـ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [البقرة: 1]، تخيل إن كل آيات سورة «البقرة» ما عدا آيتين فيها الألف واللام والميم، وأن سورة «آل عمران» كلها فيها ألم ما عدا آيتين.

---

(1) ذكره **الهندي** في «كنز العمال» (الحديث: 35205).

ادع الله أن يشملك برحمته:

تأمل الآية الثانية من سورة مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 2]، أعرف رجلاً قال لي: كلما بدأت سورة «مريم» قرأت هذه الآية أبكي. أتعلم ماذا تعني: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾، لا تستهن بهذه الكلمة؛ لأن الله لو شملك برحمته يحفظك إلى أن تدخل الجنة وهذا يشبه الآية التي تقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]، فالله عندما يحفظ عبده يدخله في رحمته مثلما يحفظ المصحف من التحريف، فادع الله دائماً قل له: اشملني برحمتك فهو يقول: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، فتعالوا نسمع: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾، ثم بدأت القصة في الآية: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3]، لماذا خفيًا؟ لأن كل آيات سورة «مريم» فيها معنى الحنو هذا: خفياً، رضيًا، سريًا، كلها آيات فيها هذا الحنو الذي يرقق القلب: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾، وتشعر هنا كأنك ترى سيدنا زكريا أنه في غرفة وحده والنور خافت جداً وليس معه أحد، يرفع يديه يقول: يا رب يا رب، وتبدأ الرحمة تتنزل في هذه الحالة فلتجرب هذا النداء الخفي أثناء الليل داخل غرفتك واقفل على نفسك، الشاب البعيد عن الله يغلق غرفته عليه ليشاهد فيلماً إباحياً، أو الإنترنت ليشاهد أمراً محرماً، أو الهاتف ليتكلم في الحرام، أنت لست هكذا.. أنت تحب هذا المصحف وتريد أن تصبح مثل سيدنا زكريا! جرّب الخلوة بالمصحف وستتذوق طعم الأنس به.

تقرب إلى الله من باب الذل:

قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾، فما هي فوائد إخفاء الدعاء؟ لأن الدعاء الخفي دليل أنك أكثر إيماناً؛ لأن صاحبه يعلم أن الله سامعه فيدعو دعاء خفياً، رأى النبيّ ﷺ الصحابة كل واحد منه يركب على ناقته ويدعو: يا رب يا رب، والأصوات عالية جداً فقال النبيّ ﷺ: **«اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً»**[1]، وقد تجلس في غرفتك تهمس: اغفر يا رب سامح يا رب ارحم يا رب، وصوتك مجلل في السماء السابعة، روي في الحديث أن العبد إذا قال بصوت خافت: يا رب، انظروا الصوت الخفي يا رب يا رب، يقول الله في عليائه فيسمعها أهل السمٰوات كلهم: لبيك

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 4205)، و(الحديث: 6384)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6802)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 1526)، و(الحديث: 1528)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3461)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 3824)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 4/ 418).

عبدي لبيك عبدي لبيك عبدي، أنتم موصولون بإله عظيم، لماذا تتخيلون أن الطرق مقطوعة بينكم وبين الله؟ فكلمة «نداء خفياً» من الأشياء الجميلة فيها أيضاً أنه أكثر أدباً، لماذا؟ لأن من الأدب مع الملوك أن لا تكلمهم بصوت عال فتخفت صوتك بين أيدي الملوك فكيف بين يدي الله تبارك وتعالى؟ هكذا الصوت الخفي أكثر إيماناً وأكثر أدباً وأكثر إخلاصاً وأكثر خشوعاً وأكثر تركيزاً، فلنتفق أن يكون لنا كل ليلة في سريرنا نداء خفياً وانظروا: بدأ الله بهذه الآيات: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾، كأن هذه الرحمة جاءت عندما نادى نداءً خفياً واسمع الآية التي بعدها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4]، الحقيقة القرآن جميل جداً: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، تعبير شديد الروعة: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾، لماذا لم يقل: وهن جسدي؟ ما هو أقوى أمر في صلب الإنسان؟ العظم، فعندما يصبح العظم ضعيفاً يصبح بقية الجسد ضعيفاً جداً... واشتعل الرأس شيباً، أي: مثل النار عندما تشتعل في شيء، أنا أصبحت عجوزاً جداً لدرجة أن الشيب يدخل في شعري مثل النار عندما تأكل شيئاً، فالمعنى الأول: أنه كان خفياً وثاني أمر أنه يتذلل لله فعندما تريدون أمراً من الله تذللوا لله، ولو لم تشعر بهذا التذلل افتعله لله ﷻ، الإمام أحمد بن حنبل يقول: كنت مرة أطوف بالكعبة فرأيت إنساناً يطوف وسمعته يقول: يا رب، ملابسي بسيطة كما ترى وامرأتي ضعيفة كما ترى وابنتي بسيطة كما ترى، يا من الذي يرى ما لا يراه أحد، فالإمام أحمد بن حنبل أشفق على الرجل فأخرج خمسة دراهم وأعطاها للرجل ولكن الرجل قال: ما هذا يا إمام، لا، لا، أنا لست فقيراً، أنا غني جداً أنا من البلد الفلانية وعندي الأملاك الفلانية، فتعجب الإمام أحمد وقال له: لماذا تفعل هذا؟ قال: يا إمام، يحب الله أن يدخل عليه العبد من باب الذل، فأحببت أن أستذل لربي ليعطيني المزيد والمزيد، وكان رسول الله ﷺ عندما يدعو يضم يديه ويفردهم أمامه ويحني رأسه لله ﷻ، حتى أن الصحابة يقولون: فكنّا نرى بياض إبطيه، استشعر ذلك يمدك بعزه واستشعر فقرك يمدك بغناه، استشعر ضعفك يمدك بقوته، قل له: يا عزيز، من للذليل غيرك، قل: يا قوي، من للضعيف غيرك قل له: يا غني، من للفقير غيرك، ولذلك من أجمل الأدعية التي كان العلماء يدعون بها: **«اللهم إنا نسألك بعزك وذلنا ونسألك بقوتك وضعفنا ونسألك بغناك وفقرنا أن كذا وكذا»**، إذن المدخل الثاني الذي دخله سيدنا زكريا مدخل الذل، فأول أمر «نداء خفياً» للإخلاص والخشوع والمدخل الثاني: الذل، والمدخل الثالث: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، وهو اليقين الشديد بالإجابة، ولذلك النبيّ ﷺ يقول لك: **«لا يقلنّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له»**.

من هنا أول شرط من شروط اجابة الدعاء اليقين في الإجابة، فلا تدع وأنت في شك بل تدعو وأنت متأكد من الإجابة.

قل: يا رب، يا ذا الجلال والإكرام، ارزقني زوجة صالحة تسعدني في الدنيا والآخرة وعجّل لي بها وأنت مطمئن أنه سيحدث، يا رب، اصرف عني هذه المعصية، يا رب يا رب، منّ علي بصاحب صالح يعينني على طاعتك في الدنيا والآخرة، يمنّ عليكم فيصير عندك يقين بالله، كم ألف دعوة دعوناها استجاب الله لك؟ أليس كثيراً؟ أم أن الشيطان ينسيك إجابة الله لك؟

شروط إجابة الدعاء:

شروط إجابة الدعاء هي اليقين في الإجابة وعدم الاستعجال، والشرط الثالث: الخشوع، والذل لله أثناء الدعاء، يقول الإمام أحمد بن حنبل: أنا أعلم متى يستجاب دعائي قال: **عندما يخشع القلب وتذرف العين وتخشع الجوارح أقول سيستجاب الآن**. فالمرء يبالغ في الدعاء حتى يجد نفسه خشعت وعينه دمعت وقلبه خاشع ويديه تهتز، وعبد الله بن عمر ﷺ يقول: هل أخبركم متى يستجيب الله الدعاء؟ قالوا له: متى، قال: ما رأيكم في رجل في وسط بحر هائج انقلبت به السفينة أوشك على الموت، فتعلق بخشبة وظل ينادي: يا رب، يا رب، كيف يقولها؟ - سيقولها بكل جوارحه - فقال عبد الله بن عمر: فإذا دعا المسلم كذلك فوالله الذي لا إلٰه إلا هو لا ترد دعوته أبداً: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62]، فعندما نقول شروط إجابة الدعاء يعني: لو عملت هذه الأربعة سيستجاب دعاؤك، رابعاً: إنسان أكل الحلال (انظروا رجعنا لـ أنبته نباتاً حسناً) النبيّ ﷺ يقول: «**أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**»، العلماء يقولون لك: من خاف على دعوته بعدما يدعو يتصدق لماذا؟ حتى يطهر المال نرجع لقوله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾، وبدأ يشكو، لماذا تريد أن تنجب يا زكريا؟ هل ترغب في الأولاد أم أمر للإسلام؟ هل تتذكرون الجدة كانت تريد أن تنجب لماذا؟ للمسجد الأقصى، وسيدنا زكريا يريد أن ينجب للإسلام يقول: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: 5]، كلمة الموالي يقصد بها أبناء عمومته، فهو يريد أن يبعث الله نبياً من ذريته حتى لا تضيع النبوة، فهو ينجب للإسلام فهل هناك أحد يتزوج للإسلام وينجب للإسلام ويعمل في هذه الشركة للإسلام، ويلعب هذه الرياضة للإسلام؟ أي: أن يوظف الإنسان حياته للإسلام حتى يقلده الناس وتقول: هذا هو

الإنسان المتدين أفضل إنسان فينا، أرجوكم حافظوا على صورة الإسلام، كل إنسان يأتي للمسجد يقال عنه: هذا متدين، أرجوكم صورة الإسلام في رقبتكم، نحن مسؤولون عن الإسلام، هذا الدين مسؤوليتنا.

قضية دين:

انظروا سيدنا زكريا يقول: يا رب، ارزقني طفلاً أورثه النبوة، فلو ظل إنساناً واحداً معه النبوة، معه الدين أموت وأنا مطمئن، أصبحت كبيراً، إنما قضيتي الدين، فهو يقول: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾، ومن الملاحظ أن كل أنبياء بني إسرائيل عندما يموتون يخافون من اليهود من بعدهم، وهم أنبياؤهم وهم أعلم بهم، انظروا سيدنا سليمان ماذا كان يقول، بعض الناس ظنها أنانية: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: 35]، فهو يقصد: يا رب هذا الملك الكبير الذي وهبته لي تسخير الجن، والريح، والطير، يا رب، لا تجعله لليهود من بعدي، فسيدنا سليمان يقول: يا رب، هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي؛ لأن هذا الملك لو ذهب لليهود سيفسدون في الأرض، ولذلك ـ سبحان الله ـ لا يوجد أي أثر من آثار سيدنا سليمان موجوداً، هم يحفرون تحت المسجد الأقصى ولم يجدوا شيئاً، فسيدنا سليمان عليه السلام مات وهو يبني مسجداً ضخماً جداً، فظل الجن يبنون ويبنون ومات وهم يبنون، أين ذهب البناء الضخم للجامع؟ لقد دعا أن يهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، هل يوجد أحد ملك في الكون أكثر من سليمان، الأهرامات موجودة، فأين ملك سليمان؟ وما ذلك إلا لأنه خاف من اليهود، وسيدنا زكريا أيضاً كان خائفاً من هؤلاء.

وراثة الصلاح:

الآية التي بعدها تقول: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، [مريم: 6]، أي: يرث النبوة، فقال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، يا رب، أحبه واجعل الناس تحبه، انظر الدعوة للابن، الناس المتزوجون يعرفون هذه الجملة، أعظم نِعَم الله عليك هي ابن صالح، فإن مت تجد من يدعو لك بعدما تموت؛ لأنه عندما ينقطع عملك، إذا كان هناك من يرسل لك حسنات، تظل مرتبتك في الجنة تعلو، فالذي له جد مات أم له أب مات أو أم أو أخ فليرسل لهم حسنات، الحسنات التي تصل للأموات في قبورهم: الحج والعمرة والصدقة والدعاء والقرآن مقروناً بالدعاء، يعني: ترحم على جدتك التي ماتت ادعُ لها: اللهمّ اغفر لها، اللهمّ ارحمها، اللهمّ اغفر لها، اللهمّ ارحمها، تصدق وسوف تصلها صدقتك، وتنتقل بها من حال إلى حال، فإن كان والعياذ بالله يعذب يرحم، وإن كان الله راضياً عنه يغفر له،

فلتتزوج امرأة صالحة تنجب لك أولاداً مؤمنين، أنتم غير مدركين هذه القيمة، ولد صالح يدعو له، أكبر قيمة لك في الحياة، يا رجال يا نساء، ربوا أولادكم على طاعة الله سبحانه وتعالى ليخرج لكم أولاد يدعون لكم.

يا شباب، أرجوكم اختاروا زوجاتكم جيداً، يا فتاة لا تتزوجي أي شخص يتقدم لك ابحثي عن الصالح، الذي يرتقي بك الى اللّه تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ [مريم: 7] ، عندما عمل سيدنا زكريا كل هذه الأشياء قيل له هذه الآية الجميلة: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ .

الدعوة استجيبت يا إخواني، الدعوة استجيبت، ألا تصدقون؟ ولكن عليك بعمل شروط زكريا، أن يكون دعاؤك خفياً وأن تكون موقناً، ويكون هدفك أمر الله تبارك وتعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾.

ولماذا يحيى؟

قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾، يعني: لم نجعل له من قبل سمياً، أول من سمي بهذا الاسم لم يسم من لدن آدم حتى زكريا أي غلام في تاريخ البشرية باسم يحيى، فكان أول من سمي بيحيى هو سيدنا يحيى، من الذي سماه؟ الله تبارك وتعالى، ويبدو أن الاسم له سر، وعندما يسمي ربنا يحيى فلا بد أن يعيش، يعني: مخلد، يعني: لا يموت، لكن الناس جميعهم سيموتون، فلماذا سماه الله يحيى؟ سماه الله يحيى؛ لأنه قدر له أن يموت شهيداً، لأن الوحيد الذي يظل حياً بعدما يموت هو الشهيد.

اذا كنت تتمنى عدم العذاب بعدما تموت، عليك بالشهادة في سبيل اللّه.

حوار مع اللّه:

عبد الله بن حرام قتل في غزوة أحد، يقول ابنه جابر بن عبد الله: فعلمت أن أبي قد مات فأسرعت إلى أرض المعركة، أقول لأصحاب النبيّ: دعوني أنظر إلى أبي، وهم يدفعونني؛ لأن أباه كان قد مُثل به، فقال لهم النبيّ ﷺ: **«دعوه ينظر إلى أبيه»**، يقول: فجعلت أنظر إلى أبي ثم أضع وجهي في كمي وأبكي، لقد كان جسد أبيه مقطعاً، فنظر إليّ النبي وقال: **«يا بني أذكر أولادك به، لا تزل الملائكة تظلله بأجنحتها»**، ثم نظر إلي النبيّ وقال: **«أبشر يا جابر»** فقلت: لم يا رسول الله؟ فقال: **«أتدري يا جابر ما كلم الله أحداً إلا**

من وراء حجاب، وكلم الله أباك كفاحاً بغير حجاب، فقال له: يا عبدي تمن علي، فقال: يا رب أتمنى أن أعود إلى الدنيا، فأقاتل مرة أخرى مع رسولك في سبيلك لما وجدت من حلاوة الشهادة، فقال له الله تبارك وتعالى: يا عبد الله إني كتبت عليهم أنهم إليها لا يرجعون، فتمن أمنية أخرى يا عبدي، فقال: يا رب أتمنى أن تبلغ عني أهل الدنيا ما أنا فيه من السعادة»، فنزل قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: 169]، يدعون ربهم ويقولون: يا رب فلان يلحق بنا.

في الشهادة الخلاص:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: 170، 171].

يا أخي، هل تخاف من وقفة يوم القيامة؟ إن أردت أن تتخلص من هذا كله فمت شهيداً، كيف تموت شهيداً في سبيل الله؟ يقول النبيّ ﷺ: **«رأيت شهداء أحد يطيرون في الجنة، يأكلون من ثمار الجنة ويشربون من أنهار الجنة ويأوون إلى قناديل تحت عرش الرحمٰن»**[1]، فأنت يا أخي عندما تموت شهيداً فإنك تموت الموتة الصحيحة، تموت مثل ما الله أراد، يعني، تموت بشكل صحيح، بشكل يرضى عنه الله تبارك وتعالى، سيدنا علي بن أبي طالب كان يقول دائماً: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك بعد عمر طويل في سبيلك بعد عمر طويل في سبيلك»، اعمل للإسلام أولاً واعمل شيئاً كبيراً في الدين، ليس الأمر مسألة أنانية، اعمل أولاً أمراً لدينك ثم مت بعد ذلك، ولذلك مات شهيداً وعمره خمسة وستون سنة، لا تتعجلوا يا شباب، اعمل للإسلام إلى أن تجد معركة صحيحة واضحة، وقتها نفرح بك، ونفرح بشهادتك.

العلماء قالوا: سمي يحيى لأن قلبه سيظل حياً لا تميته معصية، وقيل: سمي يحيى لسبب آخر لأنه هو الذي سيحيي موات قلوب بني إسرائيل، وسمي: يحيى؛ لأن الله أحيا به محيا، فهو يحيى في كل شيء.

هو عليّ هين:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴿٨﴾﴾ [مريم: 8]، سبحان الله، هذه هي النفس البشرية.. سيدنا زكريا عليه السلام كان بشراً، فهو يقول له: كيف يا رب؟ لكن ليس معنى

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 4078).

هذا ـ أستغفر الله العظيم ـ أنه غير مصدق، إنما يسأل عن الكيفية، يا رب، أنا دعوتك وأنا متأكد أنك تجيب الدعاء، لكن أنا يا رب غير قادر على لقاء زوجتي، أنا فقدت القدرة على الاقتراب من المرأة، وزوجتي عاقر: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]، فأنا بالمقاييس البشرية لا أصلح، لا ينفع أن يحدث هذا، انظر الآية التي بعدها وهي جميلة جداً فقال له الله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۝٢١﴾ [مريم: 21]، هذا أمر بسيط جداً، هو عليّ هين.. يا أخي، بالله عليك الشقة التي تريد أن تشتريها لتتزوج فيها، هو عليه هيِّن أم لا؟ إنك تحتاج وأن يرزقك الله بالزوجة المناسبة، هو عليه هيِّن أم لا؟ الذنب الفلاني الذي معك منذ عشر سنين ولا تستطيع أن تتركه، هو عليه هيِّن أن يخرجه من قلبك أم لا؟ أن يرزقك ويوسع رزقك بعد الضيق الذي أنت فيه، هو عليه هين أم لا؟ يا إخواني هو عليه هيِّن، وهذا أمر بسيط جداً يا زكريا، أمر سهل جداً، سيدنا زكريا فعل أمرين ليستجيب الله دعاءه، أولاً: دعا بصدق، ثانياً ـ وهو أمر جميل ـ: أنه كفل مريم، وصدقني اكفل يتيماً يرزقك رب العالمين، ادع بصدق، ولا تتعجل، جربها يا أخي يا جماعة هل تصدق، في سن الشيخوخة وهكذا فجأة وجد نفسه قادراً على الاقتراب من زوجته ووجدها حاملاً، ما هذا يا رب ما هذه القدرة المبهرة؟ يا إخواني، ادعوا بصدق، أنا سأذكر لكم مثلاً على قدرة الله المبهرة.

ادع بصدق:

بقيت بدون إنجاب مدة عشر سنين، وأدعو أنا وزوجتي، ولكن لا يوجد إنجاب، ولا يوجد أولاد، إلى أن ذهبت للحج لكن هذه الحجة كانت أمراً آخر ظللت أدعو بجد، وقلت لكل القوم الذين معي: بالله عليكم يا إخواني يوم عرفة ادعو لي، ادعو لي أن يرزقني الله بأولاد، والله يا إخواني دعونا دعاء طويلاً، ما زلت أذكر أنني ما دعوت في عمري مثل هذا اليوم، وكان يوم رحمة، يا إخوة، ساعة المغرب في يوم عرفة كانت الدنيا تمطر على عرفة فقط، لن أنسى هذا اليوم، دعونا ودعونا ونزلنا من عرفة ثم وصلنا منى، وزوجتي كانت في القاهرة فقمت أكلمها لأطمئن عليها، فكلمتها وقلت لها: ما أخبارك وكيف حالك؟ قالت لي: ذهبت للطبيبة، وقالت لي: إني حامل، والله الذي لا إلٰه إلا هو، هذا ما حدث.

داووا مرضاكم بالصدقة:

سأذكر مثلاً آخر، رجل عنده طفل عمره ثلاث سنين، وفجأة الولد بدأت تظهر عليه أعراض تعب شديد، فأخذوه للطبيبة واكتشفوا أن الولد عنده السرطان، لا حول ولا قوة إلا

بالله، وقالت الطبيبة: هي مسألة شهور والولد سيموت، لكن نحن سنعطيه علاجاً؛ لأن الفترة ممكن أن تكون طويلة إلى أن يموت، ونحن بذلك أخذنا بالأسباب، واضح أن الولد أصبح كالمومياء، وهما صابرين، ويدعو الرجل وكان متديناً يقسم لي ـ هذه الحكاية ذكرت في إحدى القنوات الفضائية ـ يقسم لي أنه في يوم من الأيام وجد امرأة عجوز تبحث في الزبالة على شيء لتأكله، فذهب وقال لها: ماذا تفعلين يا سيدتي؟ قالت له: والله أنا أربي أيتاماً، أبحث عن لقمة، قال لها: اتركي ما تفعلينه، وأخذها وذهب إلى الجزار الذي يتعامل معه: يا عم فلان انظر هذه السيدة ستأتي كل شهر، أعطها كذا وكذا ولا تحاسبها، عندك كم ولد يا سيدتي؟ عندي أربعة، ثم أخذها وذهب بها إلى البقال، يا عم فلان هذه السيدة ستأتي لك كل شهر أعطها ما تريد ولا تحاسبها، حسابها عندي، وبعد ثلاثة أيام، يقسم بالله العظيم يقول لي: وجدت الولد يتحسن، فأخذته للطبيبة وكشفوا على الولد فقالوا لي: هذا الولد غير الولد الذي أتيت به من قبل، أين الولد الذي أتيت به؟ قال لهم: هو هذا، قالوا له: غير ممكن، مستحيل قل لنا ما الدواء الذي أعطيته له؟ العلاج لا يذهب المرض بهذه السرعة، أنت أكيد أعطيته دواء، فيقول: والله ما أعطيته أي دواء، يقول: وبدأت أسأل نفسي: ماذا فعلت؟ لا أعرف، يقول: ذهبت إلى البيت وفتحت كتاب الترغيب والترهيب لأقرأ، فوقع نظري على حديث النبيّ ﷺ: **«داووا مرضاكم بالصدقة»**[1] صدق رسول الله ﷺ.

يا إخواني، دعوات الله مستجابة، لكن من الذي عنده اليقين؟ ومن الذي يصدق؟

الرحمة بالنساء:

نعود لسيدنا زكريا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾، كيف يا رب؟ ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8]، هنا نقطة رقيقة جداً، يوجد رجال كثيرون لا ينجبون ويلقون العيب على السيدة، حتى لا تخدش رجولته، لكن انظر لعدل سيدنا زكريا، على فكرة في آية أخرى وضع نفسه أولاً: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، فمعنى جميل جداً، أن سيدنا زكريا رحمته بالمرأة كانت كبيرة، هناك رجال يعذبون السيدات اللاتي لا ينجبن، يشيع للناس كلها: هي لا تنجب، يا أخي، حتى لو كانت لا تنجب فقل من باب الرحمة: أنا وهي لا

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 6/ 405).

ننجب، فانظروا كيف يعلمنا القرآن الرحمة مع النساء؟ فذكر المرأة وذكر نفسه، من باب العدل.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: 8، 9]، هل نسيت أنك كنت عدماً، يا إخواني، اجعلوا يقينكم في الله صادقاً، ثم قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [مريم: 10]، يا رب، أريد أن أطمئن أكثر، أرني آية يا رب، هل سيدنا زكريا غير مصدق؟ لا يا إخوة لكن هل أنتم متخيلون صعوبة الموضوع؟ متخيلون الموضوع مفاجأة لأي درجة، لدرجة الدهشة فيقول له: يا رب، أرني آية فقال له الله: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، الآية أنك لن تكلم الناس ثلاثة أيام، هذه آية خطيرة.. معنى الآية أن الله قال له: هل أنت مستغرب إنني سأخرج منك ولداً وأنت ضعيف لا تقدر أن تنجب، أنا سأريك الآية في جسمك أنت، وأكثر شيء ملكك هو لسانك سأجعلك لا تتكلم لمدة ثلاثة أيام وأنت صحيح سليم، عندما تتكلم لسانك لا ينطق لكن لما تذكر الله لسانك يعمل، ***والله يا جماعة نحن مصابون لله جداً نحن من غيره لا نساوي شيئاً، انظروا لملكه ولقدرته***، هل رأيت المعجزة الذي فعلها الله مع سيدنا زكريا، زكريا أنت ولسانك ملك لي: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، يا إخواني ما شكل يقينكم بالله وثقتكم فيه الآن؟ لحظة إخلاص مثل سيدنا زكريا هذه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم: 9-11]، أوحى أي: أشار بيده لأنه لا يستطيع أن يتكلم: ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

أسرة لا مثيل لها!

وولد سيدنا يحيى، ونسأل: لماذا أنزل الله كل هذه المعجزات على آل عمران؟ انتبهوا كم معجزة مع هذه العائلة، كثيرة جداً أكثر من أي عائلة، مريم يأتي لها بالرزق ويصل إليها، وزوجة آل عمران تلد بعد سنين طويلة من عدم الإنجاب، وسيدنا زكريا وزوجته ينجبان بعد سنين طويلة، والأقلام يقف منها قلم سيدنا زكريا وباقي الأقلام تجري، ولسان سيدنا زكريا ينطلق وينعقد حسب ذكر الله وعدم ذكر الله، وسيدنا عيسى يولد من غير أب، لماذا هذه العائلة التي يحدث معها كل هذا؟

لأن هذه العائلة تعيش في وسط اليهود، واليهود مشكلتهم الأساسية أنهم أناسٍ ماديون جداً لا يؤمنون إلا بالمادة، ولذلك سورة «البقرة» تتكلم عن مشاكل اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، لأن مشكلة اليهود الأساسية أنهم أناس ماديون، الله ﷻ كان يبعث لهم المنّ والسلوى، عسل وطيور تأتي لهم من السماء فكانوا يأكلونها باستمرار لكن الوضع لم يعجبهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: 61]، نأكل بصلاً بأيدينا ولا نأكل منًّا وسلوى وهو ليس ملكنا، نحن الذين سنزرعه.. انظروا للمادية، نحن الذين نزرعه، لكن تحضر لنا مناً وسلوى من السماء لا، فهم أناس ماديون جداً فالله أراهم عدداً من المعجزات.

انتبهوا يا أمة محمد نحن نعيب على اليهود المادية ونحن نعاني من المادية الشديدة.. أين الإيمان بالغيب؟ أين اليقين في اللّه؟ يا أخوة ليكن عندكم يقين في اللّه، وعندكم ثقة في اللّه.

يا إخواني، الآيات المذهلة الكثيرة هذه حدثت مع اليهود؛ لأنهم أناس ماديون ولذلك أمة محمد لم يحدث معها كل هذه المعجزات الذي حدثت مع آل عمران؛ لأن آل عمران كانوا في وسط أناس يؤمنون فقط بالمحسوس وبالمادة، فالله بعث لهم معجزات كثيرة فأرجوكم لا نريد أن نصبح مثلهم.

دقة التعبير القرآني:

يوجد معنى جميل حول هذه الآيات، انظروا لدقة التعبير القرآني عن زوجة سيدنا زكريا يقول: امرأة زكريا، وكانت امرأتي، ومرة تقول كلمة زوجة، يعني هل هي كلمة تقال؟ مرة يقول: امرأة فرعون ومرة يقول: وأصلحنا له زوجه، أحياناً يستخدم كلمة امرأة في القرآن وأخرى يستخدم كلمة زوج، انظر حلاوة التعبير القرآني قال: وأصلحنا له زوجه فقبل الأولاد اسمها امرأة وبعد الإنجاب اسمها زوج لماذا؟ المعنى جميل جداً: لمّا كانت عاجزة عن الحمل كان اسمها امرأة ولمّا كانت قادرة على الحمل كان اسمها زوجة، إذا كان هناك عدم انسجام بين الزوجين تصبح زوجة أم امرأة؟ امرأة لأن كلمة الزوجة لا تطلق إلا عند الانسجام.

خذ الكتاب بقوة:

قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 19]، كبر يحيى وأصبح عمره اثنا

عشرة أو ثلاثة عشرة سنة، ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾، الآية هذه جميلة جداً، والمعنى يا شباب: خذوا الكتاب بقوة، الكتاب عند سيدنا يحيى كان التوراة.

أرجوكم يا شباب خذوا الإسلام بجدية وأحسنوا الالتزام وغض البصر: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور: 30]، أرجوكم خذوا الكتاب بقوة.

يا أخواتنا يا بناتنا، اقطعوا العلاقات غير الشرعية مع الجنس الآخر.

قل سأنزل أصلي في المسجد.... خذ الكتاب بقوة وقل: سأطيع أبي وأمي، خذ الكتاب بقوة والله يقول: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، هذه حكمة وتعقل.. يا أخوة، أمر الله يحيى بأخذ الكتاب بقوة وعمره ثلاثة عشر سنة، ومن الناس من هو في العشرين والثلاثين، والمعصية تنادي فيستجيب لها!

البر الحقيقي:

قال تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ [مريم: 13، 14]، براً بوالديه هنا فيها معنى مهم جداً أن أبوه وأمه كبار في السن، البر الصحيح يا إخواني أن أباك حين يتجاوز الستين ترحمه وتحمل له رجله من على الأرض وتضعها له على السرير وتؤكله، أتستطيع ذلك؟ أنا رأيت شباباً كثيرين جداً آباؤهم وصلوا لهذا الحال، فينزله الولد ويلبسه الحذاء ويمسح له رجليه ويوضئه ويقص له أظافره. ورأيت ولداً أبوه يوجهه يقول له: اعمل كذا، اعمل كذا، والولد يعلو صوته: يا أخي كفى! وبدأت الناس تتجمع..

بروا آباءكم.. حتى تبركم أبناؤكم في وقت احتياجكم اليهم..

أشد المواقف

قال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم: 15]، لماذا هذه المواقف الثلاث؟

هذه أصعب ثلاثة مواقف في حياتك.. فالله يقول له: أنا سأعطيك السلامة والأمان في أصعب ثلاثة مواقف في حياتك، الطفل يوم أن يولد يحس أنه أتى إلى عالم جديدٍ فيصرخ من هذا العالم الغريب؛ لأنه كان معتاداً على حصن اسمه: رحم الأم، وعندما خرج للدنيا استغرب المكان الجديد، فصرخ... وهذا يذكرنا بوحشة القبور.

لو واحد من أمواتكم مات وعنده ذنوب تقدرون أن تجعلوا قبره روضة من رياض الجنة بإرسالكم الحسنات إليه.

يقول: لك السلام والأمان يوم ولادتك ويوم أن تموت ويوم أن تقف بين يدي الله لوحدك وهو يقول لك: عبدي استهونت بلقائي أكنت عليك هيناً؟ أظننت أنك لن تلقاني؟ أكنت تتجمل للناس وتأتيني أنا بالقبيح؟ ألم أكن رقيباً على عينيك وأنت تنظر بهما إلى الحرام؟ ألم أكن رقيباً على قدميك وأنت تسير بهما إلى الحرام؟ ما غرك بي يا عبدي؟ هذه أصعب ثلاثة مواقف في حياتك، فيا هناءه الذي يقال له: «سلام عليك» يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً.

مهري رأس يحيى!

لكن كيف مات سيدنا زكريا؟ يقول الله ﷻ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]، أتعرفون كيف قتل سيدنا زكريا؟ لقد نشروه بالمنشار نصفين: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: 155]، نُشر سيدنا زكريا ولحق به ابنه يحيى شهيداً، قتل يحيى؛ لأنه كان هناك ملك يهودي يريد أن يتزوج من ابنة أخيه، وهذا زواج محارم وفي شريعتهم هو حرام، فأنكر عليه يحيى وجعل اليهود ينكرون عليه فاغتاظت الفتاة اليهودية فقالت للملك: مهري رأس يحيى: فقُتِل يحيى وجيء للفتاة برأسه على طبق من فضة وكان هذا هو مهر الفتاة.

لا تغضبوا وتقولون لماذا حدث ذلك؟ فهذا شيء جميل يا إخواني فهو عند الله تبارك وتعالى في عليين.

هذه كانت نهاية سيدنا زكريا عليه السلام، وسيدنا يحيى، يقول النبيّ ﷺ: **«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»**[1]، «وكذلك ابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا سيدا شباب أهل الجنة»، **«وفاطمة بنت محمد سيدة نساء العالمين وكذلك مريم ابنة عمران سيدة نساء العالمين»**[2]، انظر تعانق نبينا وأهله مع آل عمران وأهلهم تشعر أنهم عائلة واحدة.

بعون الله تم الكتاب

---

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 3768).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 6264).